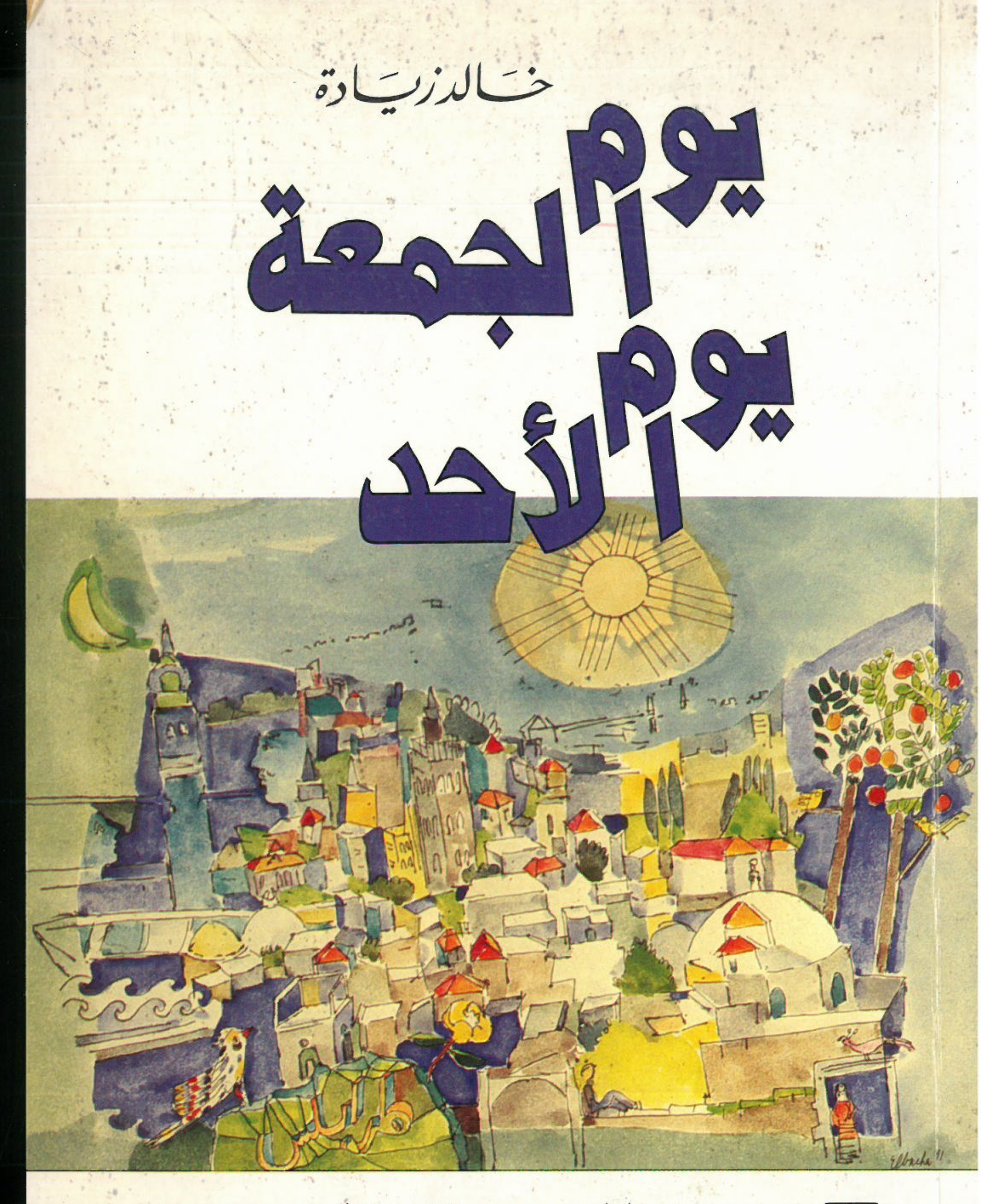
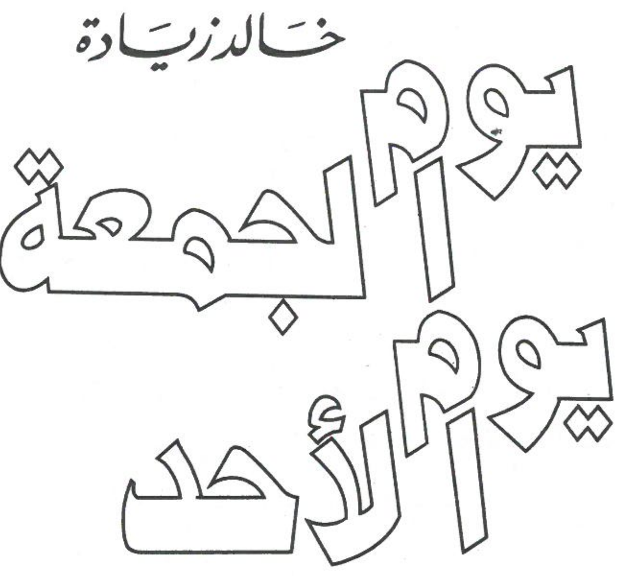
خالد زيادة

يوم الجمعة يوم الأحد



مقاطع من سيرة مدينة
على البحر الأبيض المتوسط



مقاطع من سيرة مدينة
على البحر الأبيض المتوسط





شارع روما، بناية فارس
هاتف ٣٤٠٠٤٤-٣٥٣٦٩٩
تلكس NHRPS ٢٠٤١٧ LE

تمهيد

ثمّة مدينة – طرابلس، لبنان – تقع على المتوسط الشرقي، تلقّت بصمت أحياناً، وبدويّ عنيف أحياناً أخرى، آثار التجاذبات التي جابهت ما بين أطراف المتوسط.

كنّا صغاراً آنذاك، حين بدا أهل المدينة وكأنهم ينتقلون على عجل من مدينتهم القديمة صوب الجهة الغربية التي امتد إليها العمران وسط بساتين الليمون التي كانت تحيط بالمدينة.

لقد شُغلت دائماً بمعنى هذا الإنتقال الذي لم يخلُ من تدمير وتشويه للمدينة القديمة وعمرانها. كنتُ أظن أن التشويه يطال عمران وعادات الماضي، إلى أن تنبّهت، قبل سنوات قليلة، إلى أن أعمال التدمير تطال أيضاً المباني التي كانت رموزاً للتحديث. في تلك اللحظة التي كانت تشهد هدم آخر ثلاثة معالم كولونيالية، أدركت أن مقاربة الموضوع لا يفي بها التحليل التاريخي او السوسيولوجي، فلا بدّ أن نستنطق وجهة نظر العمران والعادات، فراجعت تجربتي الخاصّة في بيئتي التي نشأت فيها أو الناس الذين عشت وسطهم، ونقّبت في بقايا الذاكرة لأتعقّب علاقتي الخاصّة بتلك المعالم والأمكنة التي شكّلت عالم طفولتي وصباي.

لم أكن أسعى إلى كتابة سيرة ذاتية أو أدوّن وقائع أو أن أحييّ تقاليد زالت. لقد حاولت أن أكتب سيرة الأمكنة في زهوها واندحارها كما عشتها. أن أكتب سيرة متقطعة للأوقات المتغيّرة بدورها. إن ما أثار في نفسي الرغبة في كتابة هذه المقاطع أو لنقل المشاهد، هو تلك

العلاقة الحميمة التي تقوم بين الأمكنة وبين الأوقات.

أوقات سابقة اندثرت بعد أن انحطّ الزمن بأمكنتها.

يترك مرور الوقت علامات عميقة على الأمكنة. في ذلك الوسط المديني حيث التجاذب بين القديم والحديث، بين التقليدي والآخر، ولا يخلو الأمر من عنف رمزي قبل أن يتحوّل إلى صراع مكشوف. لقد مرّ الوقت الذي تعايشت فيه النماذج بسلام ظاهري، فترة سعيدة من الزمن بين الخمسينات والستينات. صنع سعادتها عالم الطفولة والصبا الأول. كان الوقت في صبانا، عند أول ذهابنا إلى المدرسة، يسيل سريعاً مبدلاً الأمكنة التي بحد ذاتها كانت تنداح وتنتقل من جهة الجانب الشرقي للمدينة صوب الغرب.

لا يتعلّق الأمر بوقائع يسردها المؤرّخ ويربط بينها بعلاقة سببية، ولا يتعلّق بحنين إلى أشياء الصبا، وعادات وطقوس تلك الأوقات التي استغرقها الزمن. ثمّة خشية، إذاً، من الوقوع في صنعة المؤرّخ أو كاتب العاديات. وثمّة خشية أكبر من أن تتحوّل الكتابة إلى سيرة خاصّة وذاتية.

ليست سيرة ذاتية، بقدر ما هي محطّات من ذاكرة جيل، مقاطع من سيرة مدينة.

إنها سيرة الأمكنة المنوّعة، التي كانت انطبعت بأوقات متلاحقة، كأن الأوقات ظلال لا تنمحي وخصوصاً أيام العطل في الأعياد وفي أيام الجمعة والآحاد.

لنقل أنها سيرة مدينة في فاصل زمني محدّد، يقوم طرفها على المتوسط الشرقي بينما يمعن بعضها الآخر في تاريخ داخلي وقديم، بضع مئات من السنين يحملها عمران من أحجار رملية ومآذن ودروب ضيّقة تجابه كل ما حملته بدايات القرن من نماذج تتبادلها شواطىء المتوسط.

سيرة للعمران، للدروب والأحياء وسيرة للرجال والأفكار والصور المعلّقة بخيطان من القنّب في وسط الأحياء أو الملصقة على الجدران.

في الحيّز الضيق للذكريات التي يصعب على التحليل أن يدركها، يمكن للمقاربات الأدبية التي تجاور الأنتربولوجيا ربما، أن تجمع شظايا الأمكنة التي ليست سوى إنعكاس لشظايا الذاكرة.

سيرة عمرانية

منذ زمن بعيد أبحث في نفسي عن سر تلك الغبطة العارمة التي انتابتني حين كان أهلي يبدلون بعض أثاث المنزل. لم يك ثمّة حاجة أكيدة بقدر ما كان الأمر يتعلّق بتغيير يصيب إلى حد ما نمط العيش. ثمّة رغبة في تبديل بعض القطع بأخرى: السرير النحاسي العارم ذي الأبّهة بأسرّة من معدن رخيص وأقل ارتفاعاً عن الأرض، الطاولات الخشبية المتينة المدهونة يدوياً بأخرى من «الفورميكا» التي تستند إلى قوائم معدنية. وأزيلت الخزانة ذات المرايا الثلاث بأخرى أبسط لا مرايا لها. وترافق ذلك مع التخلّص من بعض الأدوات المطبخية، الأوعية النحاسية استبدلت بأخرى من الألمنيوم، وبدل كراسي الخيزران استحضرت كراسي جلدية جاهزة. إلى حدّ ما كان الأمر أشبه بانتقال من عصر النحاس إلى عصر الفورميكا والألمنيوم، أنه زمن الانتقال من عصر الفحم إلى الكهرباء، أزيلت المكواة التي تحمّى بالفحم وأزيل «المنقل» الشتوي، وحلّت المكواة والمدفأة الكهربائيتان مكانهما.

كان ثمّة تباه واعتزاز بامتلاك تلك الأشياء والأدوات، أدوات وأشياء نتباهى بها على أولئك الذين لم يمتلكوها بعد. أما ما توجّب التخلّص منه، فكان يباع على عجل. وأذكر تماماً السمسار الذي كان يتولّى نقل تلك الأسرّة النحاسية والخزانات العارمة وأشياء أخرى إلى سوق الخردة الأسبوعية الذي يعثر فيه على جملة من المعروضات التي بإمكانها أن تعيد تكوين عدد كبير من أثاثات البيوت.

تلك الفترة التي تعود إلى ما يقرب من الثلاثة عقود من الزمن، تبدو لي أنها فترة من الغبطة. كان ثمّة اعتقاد ما بأن الأمور تسير نحو الأحسن. وأذكر، وكنت لا أزال صبياً في سنواتي المدرسية الأولى في أول الستينات أن شيئاً من الحنين لم يساورني لفراق تلك القطع التي تغادر المنزل، بل كنت أكثر فرحاً بالأثاث الجديد. والحق أن الأمر لم يقتصر على ذلك، فكان الوضع يتطلّب ترتيباً جديداً لجغرافية الجدران، حلّت الصور الطبيعية الملونة والمصوّرة مكان الصور العائلية، وأزيل البرواز الكبير الموشّى بورود من الحرير مشغولة يدوياً، وبقي مكانه شاغراً. كل ذلك لم يكن سوى التمهيد لنقل المنزل بكامله والإنتقال إلى حي جديد، أكثر اتساعاً وهدوءاً وجدّة. والشرط في ذلك مغادرة البيت الأرضي الذي اتّفق أنه كان مستقلاً إلى طابق علوي مشرف أرى من نوافذه البحر.

أمكنني، وكنت لا أزال صبيًّا، أن أراقب من شرفة المنزل الجديد بناء السرايا الجديدة الضخمة، وشق البولفار في وسط البساتين، وقطع الأشجار من مساحات واسعة من بساتين الليمون إستعداداً لبناء المعرض. وقبل أن تحجب البنايات المرتفعة المشهد كلياً، كنت أتمكّن يومياً من تعداد السفن التي تأتي لنقل النفط من الشركة التي لا تدخل منشآتها في المشهد. كل ذلك كنت أراقبه قبل أن تقفل البنايات المرتفعة المشهد كلياً.

حري بي أن أذكر بأننا لم نمكث في منزلنا هذا سوى بضع سنوات، إنتقلنا بعدها إلى منزل أكثر إتساعاً وأبعد مسافة عن المدينة القديمة. وتطلّب الأمر التخلّص من مزيد من الأشياء المنزلية القديمة واستبدالها بما هو أحدث. والمنزل الجديد يقع في وسط المدينة الجديدة تقريباً، في وقت كانت مفردات: حديث، وجديد تتكرّر في وسط الكلام المديني.

كانت الحداثة أمراً يمارس يومياً على نحو ما، قبل أن تكتب سيرة الحداثة وتقرأ. جرى في وقت متقارب نزع كثيف للحجاب والطربوش، كان ذلك في نهاية الخمسينات وبداية الستّينات. في نفس الفترة نزحت المدينة، أو أغلب عائلاتها من الأحياء الداخلية التي شهدت ولادة آبائهم وأجدادهم إلى منازل جديدة في أحياء شقّت طرقها وشوارعها للتو.

يمكن للبحث - بعد مرور هذه السنوات - أن يستعيد أصول هذه الحمى المدينية. لقد حدث ذلك بعد عام ١٩٥٨، وإثر «الثورة» التي استمرت أربعة أو خمسة أشهر - حبست أثناءها في المنزل، ووقائعها تشكل بداية وعي - وبعد سنتين أو ثلاث من طوفان النهر الذي يمر في وسط المدينة القديمة المملوكية. وفي ظني أن ليس هناك رابط بين الطوفان سنة ١٩٥٥ وبين الثورة عام ١٩٥٨. لكن في وسط الحماس العروبي مالت المدينة إلى التخلّص من تراث بدا لها بعيداً جداً ومغرقاً في القدم. لقد تقرّر هدم المنازل المحيطة بالنهر لتوسيع مجراه، وإقامة كورنيش على حافّتيه، فأزيلت منازل وحمامات وأحياء عمرها من ستة إلى ثمانية قرون من الزمن. لقد نشطت الجرافات التي مزّقت وسط المدينة القديمة. قيل أن جرّافة تعطّلت لأنها لامست قبر ولي. وحافظ التخطيط على المسجد النهري. وعدا عن ذلك فإن عمليات الهدم لم يثر في وجهها اعتراض. في تلك الفترة ازدهر العمران في الهضبة المشرفة على المدينة، حيث انتقل إليها بعض أبناء المنطقة المنكوبة بالطوفان، وانتقل إليها أبناء المناطق الداخلية من المدينة. وكان العمران يزحف آنذاك بشكل خاص باتجاه الميناء على ثلاثة خطوط، بحيث اتصل عمران المدينة بالميناء اليوم أو يكاد.

إن كتابة سيرة مدينة ينطوي على جدليّة عميقة، تبدو للوهلة الأولى عشوائية فظيعة ومخرّبة، وهي كذلك في بعض أوجهها، كأن

التحديث لا يتمّ إلّا بالثأر من القديم، والحقّ أن التحديث العمراني يمكنه أن يشقّ طريقه بالتغاضي عن القديم كأن تتجاور المدينة القديمة إلى جانب المدينة الحديثة دون خصام أو إهدار للتاريخ، لولا أن الرجال أنفسهم يريدون أن يخرجوا من ذواتهم فيثأرون من ماضيهم فيعمدوا إلى إخفائه أو هدمه وإزالته بازدراء.

يرقى التحديث في المدينة إلى ما قبل قرن من الزمن، إلى نهاية عهد التنظيمات العثماني، في الفترة التي كان فيها مدحت باشا والياً على سورية ١٨٧٩. كان مدحت باشا مشبعاً بالأفكار الدستورية والتحديثية. وإبان ولايته القصيرة قام بالعديد من الزيارات لمدن ولايته، ونصح الوجهاء في كل مدينة زارها بإقامة صرح جديد. من علامات ذلك أقيم في المدينة منتزه عام ومسجد، وإلى الفترة العثمانية المتأخرة يعود بناء السرايا في منطقة التل، وبإزائها أقيم برج الساعة عام ١٨٩٨ بمناسبة مرور ربع قرن على ارتقاء السلطان عبد الحميد العرش. لكن التحديث العمراني في بداياته لم يكن عثمانياً فقط، بل شارك فيه أوروبيون، فقد بنى المرسلون مدارس عديدة واختاروا في الغالب مناطق خارج حدود المدينة القديمة وعلى تخومها أو في حي النصارى أو في جواره. بنيت مدرسة للراهبات اللعازاريات، وأخرى للفرير ثم غيرها للطليان فضلاً عن مدارس الأميركان والروس في المدينة أو في مينائها.

كان التلّ، حيث أقيم المنتزه والسرايا وبرج الساعة، منطقة تستقطب الحداثة العثمانية، حيث تشجّع وجهاء محلّيون فبنوا منازل أشبه بقصور في المنطقة التي استوحشها غالب أهل المدينة.

بعد ١٩٠٨، ولأعوام قليلة فقط، نشر الإتّحاديون موجة من الأفكار الحديثة تتناسب مع إنقلابيتهم، وشق المتصرّف طريقاً مستقيماً تصل المدينة القديمة بالميناء وسط البساتين، وقد عرفت الطريق

باسمه ولا تزال حتى اليوم. ومن المفارقات أن الشارع الذي قام على هذا الخط المستقيم هو اليوم أحدث شوارع المدينة حيث تنتشر على جانبيه المحلات المتفرنجة، ولا يزال يحمل إسم المتصرف العثماني، وكان المتصرّف ينوي، لو طال به الوقت، أن يمدّ الطريق المستقيم بحيث يخترق المدينة ليصل إلى القلعة التي تقوم على الهضبة المشرفة. وقد بنى المتصرّف العثماني منشآت من بينها داراً للعجزة وغير ذلك.

ولكن الفترة الإنتدابية هي زمن التحديث الفعلي فانتقل مركز السلطة إلى خارج المدينة القديمة، وبذلك بني وسط للمدينة خارجها: الحديقة العامة على الطراز الأوروبي بالقرب من المنتزه العثماني، المدارس، مركز الشرطة، المحال التجارية، فنادق، ملاهي، الخ. . . جميعها اتّخذ من التلّ ومحيطه مكاناً، فصار التلّ نواة المدينة الحديثة التي امتدّت في اتجاه الغرب والشمال الغربي.

كان يمكن للمدينة الحديثة أن تمتدّ على رقعة واسعة من البساتين دون أن تطال المدينة القديمة، خاصة أن بعض المحدثين جاءوا من فضاء آخر. لكن التحديث العمراني هو أيضاً خطاب موجّه إلى مخاطبين ينخرط فيه أبناء المدينة ويستجيبون له. والحق أن المباني الحديثة كان لا بد لها من أن تلامس المنازل العتيقة. ذلك أن التحديث العمراني يأخذ شكل امتداد وانتشار وتوسّع كأنه ينبثق من المدينة القديمة انبثاقاً لأنه يستهدف إخراج القديم من عقاله، فلا يمكننا أن نتخيّل منطقة عازلة بين المدينتين، بل على العكس من ذلك، فثمّة تداخل وخصوصاً حين يرتد الحديث على القديم، يتطلّب الأمر في البداية هدم بعض الأبنية القديمة هدماً جزئيًا، لكن شقّ الطرقات هو آفة المدن القديمة وخصوصاً حين تفقد القدرة على المقاومة. إن شق الطرقات هو وليد عقلانية الخط المستقيم الذي هو أقصر مسافة بين

نقطتين، ووليد زمن السيارة (أي الأوتوموبيل في ذلك الزمان) وهو الذي يأكل أحياء بأكملها ويترك تشويهاً بشعاً على ما تبقى منها. وأول طريق شقّت في زمن الإنتداب فوق كتف المدينة. واخترقت الطريق المدينة بمحاذاة جامعها الكبير من الجهة الجنوبية الغربية.

لقد حدث في زمن الإنتداب إمتداد للمدينة الحديثة ونموّها في اتجاهات ثلاثة، ما عدا الجهة التي تقوم فيها المدينة القديمة، لكن هذا النمو للمدينة الكولونيالية، إذا جاز التعبير، لا يقاس بما حدث بعد الإنتداب.

ترك الإنتداب وراءه نواة حياة مدينية حديثة شبه مكتملة، بدأت تتكوّن في الأصل من نهاية عهد التنظيمات العثماني كما أسلفنا، وبالفعل قامت في الثلاثينات والأربعينات شوارع جديدة تشتمل على عمارات ومنشآت حكومية ومدارس أهلية وبشكل خاص محلاّت تجارية وأبنية سكنية وفنادق ومقاه. ولا ينقص المشهد المشاغل التي قامت في أطراف أخرى والصناعات التحويلية، وشارك في ذلك بكل نشاط السكان المحلّيون الذين كانوا مادة التحديث، بما في ذلك أبناء الريف المجاور المسيحي والمسلم الأكثر حماساً للإنخراط في نمط حديث من العيش، وحدث نزوح ملحوظ من القرى المجاورة أو المتوسطة البعد، فاشتملت المدينة على جماعات، أضفت على المشهد تنوّعاً، وشاركت في نشاطها التجاري والإجتماعي.

وتبدّلت بنية المدينة السكانية التي كانت تشتمل قبيل الحرب العالمية الأولى على عشرين ألف نسمة. من المسلمين والأرثوذكس بنسبة الربع إلى الثلاثة أرباع تقريباً، فصارت تضمّ زمن الإنتداب رعايا وسكّاناً من الموارنة والأرمن واليونان والمهاجرين من كريت فضلاً عن طليان وفرنسيين، وأقام فيها لبعض الوقت، زمن الحرب الثانية، الجنود من المغاربة والإنكليز والسنغال والأوستراليين.

تلك صورة تحتفظ بها ذاكرة المعاصرين، وتعطينا فكرة عن تبدّل وتوسّع ديموغرافيّين. وهي صورة انتقلت إلى العهد الإستقلالي بعد سنة ١٩٤٣. إذا أزلنا عنها ديكورات الحرب العالمية الثانية، وبدا التركيب الذي استقرّ كأنه يمتلك صفة الديمومة والإستمرار، كأن العهد الإستقلالي من وجهة نظر التركيب والنشاط الإجتماعي هو إمتداد للعهد الإنتدابي.

لكنها ليست أكثر من ثلاث أو أربع سنوات، إثر الإستقلال وبعد إنقضاء الحرب الثانية، حتى تطوّرت الأمور تطوّراً عنيفاً، ليس هنا فقط، ولكن في سائر المشرق، إذ اندلعت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، فجاءت موجة من الفلسطينيين الذين إضطرّوا إلى مغادرة ديارهم، مما أثّر تأثيراً بيّناً على مزاج المدينة. في تلك اللحظة اهتزّ ما كان يبدو استقرارا وبدأت عملية تشبه نزع آثار الإستعمار.

لا يمكن أن تُدرك الأمور على النحو الذي نذكره، إلاّ إذا أضفينا طابعاً تاريخياً على تسلسل الوقائع، وإعادة تنظيم الأمور تنظيماً معقلناً والتي تبدو في أوقاتها كأنها ردود فعل، فالظروف الصعبة واللحظات الحرجة هي التي تعيد ترتيب الأمور، فتبدّل وجهات النظر وتؤثّر في الرأي العام كما أنها تؤثّر تدريجاً في التركيب السكاني للمدينة، إن جماعات من اليهود والأرمن واليونان وغيرهم، والذين عاشوا هنا لفترات من الزمن، يفكّرون بالمغادرة، إما إلى المهاجر القريبة أو إلى المهاجر البعيدة. وبعض من الموارنة ممن إستقرّوا في المدينة لبعض الوقت يفكّرون في مغادرتها، لأسباب عديدة ومن بينها التوجّه صوب العاصمة التي هي مركز النشاط والإدارة والعمل.

والحق أن المشهد الذي صار صفة المدينة في النصف الأول من القرن هو جزء من تقلّبات عصفت بالمتوسط الشرقي إثر الحرب العالمية الأولى في العشرينات. في كل المدن الساحلية من اليونان إلى

تركيا إلى سوريا وفلسطين كانت جماعات من أثنيّات مختلفة تتحرّك. وثمّة تبادل مديني واسع النطاق نسبياً، يشمل شواطئ المتوسط المتقابلة.

كان ينبغي إنتظار عشر سنوات حتى نشهد موجة جديدة من العنف المحلّي، لكن السنوات العشر بين ١٩٤٨ و١٩٥٨ كانت حافلة بالأحداث التي يعنينا منها وجهها المديني، فقد انحسر التبادل المديني، وانكفأ الإيطاليون واليونانيون عن سواحل مصر والسواحل الشرقية واتّجه جزء من الأرمن صوب أوروبا أو أميركا، وتضاءلت الأقليات اليهودية في المدن حتى كادت تنعدم وحدث تصلّب في المشاعر الدينية والقومية كردّ فعل متأخّر على استعمار مقيت.

ثمّة في اللحظات الحرجة، في نوبات تتكرّر كل عشر سنوات تقريباً ١٩٤٨، ١٩٥٨، ١٩٦٧، ١٩٧٥، تهديم أو تخريب عشوائي يأخذ طابع نزع الإستعمار ورموزه وأشباهه وآثاره ويطال المؤسّسات التي هي أقرب إلى المثال الكولونيالي أو من بقاياه. لكن فترات الهدوء والسلم المحلّي تشهد هي الأخرى هدماً وانتزاعاً منهجياً لمنشآت هي من آثار المرحلة الكولونيالية، وقد حدث في السنوات الثلاثين الماضية هدم منظم للجزء الأعظم من المباني الإرسالية والانتدابية. فالمدرسة التي كانت تحتلّ مساحة واسعة من الأرض على طرف المدينة القديمة في وسط حي النصارى، بيعت لعدد من المتموّلين المحليّين، بعد أن انتقلت إدارتها بطلابها إلى خارج المدينة. وعمد المشترون إلى هدم الصرح القديم الذي خرّج الأجيال تلو الأجيال، منذ حوالي القرن من الزمن، فبدا المكان الذي كان مدرسة سابقاً ساحة فارغة تبدو من خلال فضائها العاري المدينة القديمة التي طالها التشويه الفظيع على مرّ السنوات والزمن.

وقبل سنوات قليلة بيعت مدرسة أخرى كانت للطليان. هُدم صرحها هدماً كاملاً، واقتلعت الأشجار ذات الطابع الكولونيالي،

وقبل ذلك هدمت فرير الميناء، أما مدرسة راهبات اللعازارية التي قامت في نهاية القرن الماضي بمحاذاة المدينة القديمة، أشبه بعتبة المدينة الحديثة، فكانت مسورة بسور عظيم، فلا يظهر لمن هو خارجها سوى قرميد الأبنية الداخلية، أما مراقبة الفتيات فلا يمكن أن يحصل إلّا في أوقات الإنصراف بعد أن تفتح البوابة الحديدية الهائلة الحجم. في المساحة التي كانت تحتلها مدرسة الراهبات قامت خمس أو ست بنايات شكّلت ما يشبه حياً شعبياً سكنياً وتجارياً في آن، مزيج من مكاتب ودكاكين ومنازل، لا يمكن تعقب كل الوقائع المماثلة، لكن هناك أمثلة أخرى أسبق عهداً، فقد اختفى المستشفى الأميركي والمكتبة الأميركية، رحلت بعض المؤسسات المالية والوكالات التجارية الغربية، الخ. . . يتعلّق الأمر بمنشآت هي من مخلّفات عصر سابق، إرساليات بناها ورعاها مرسلون نشطون كما ذكرنا، لكن فترة الإزدهار بالنسبة لهذه المدارس أو المستشفيات أو المراكز والوكالات كانت الحقبة الكولونيالية، وبانطوائها كان الضمور ينتاب بعضها. إلّا أن بعضها الآخر استطاع أن يستمد حياة وأن يطيل عمره، ذلك أن نمط الحياة الذي ارتبط بالفرنسيين ما أنفك يجتذب جزءاً لا بأس به من أبناء المدينة، وبالمقابل فإن ميلاً لنزع مظاهر الحياة الغربية وخصوصاً تلك التي لم تندمج في التقاليد المحلية، والتي لم تستطع أن تلوّن الحياة المحلّية بألوانها كانت تسقط وتتهاوى.

لكن الأمر المثير للإنتباه هو إعادة إنتاج النمط الغربي نفسه بأيدي أبناء المدينة أنفسهم، أو ما يشبه أن يكون نمطاً عمرانياً غربياً، ويُظن أنه كذلك، في المرحلة اللاحقة لعام ١٩٤٨، إنتشرت في المدينة موجة دور السينما، صالات أنيقة وواسعة أقرب إلى النمط الإيطالي، أو الأميركي. واتّخذت أسماء غربية صارخة. وبعد ١٩٥٨ إنتشرت ظاهرة مقاهي الرصيف على النمط الأوروبي واتّخذت أسماء غربية

هي الأخرى. وبعد ١٩٦٧ إنتشرت المحلّات (البوتيك) لبيع الألبسة والسلع الجاهزة، في الوقت الذي كانت تتهاوى فيه الحرف التقليدية التي كان مقرّها المدينة القديمة. وبعد ١٩٧٥ إنتشرت ظاهرة بناء العمارات والتجمّعات السكنية فانبعثت أحياء وشوارع جديدة أشبه بالنمط المعروف في الجنوب الإيطالي أو في مدن الجنوب الأميركي.

ثمّة هدم يعقبه بناء، وانتشار لظواهر عمرانية أشبه بنمو الفطريات، لكن الهدم لم يطل الأبنية والمؤسسات التي هي من زمن الإنتداب أو زمن المرسلين ولكنه طال ويطال أبنية وصروحاً تاريخية، مثال ذلك: هدم الآثار العثمانية المتأخرة كمبنى السرايا ومركز الشرطة وبضع مدارس وغير ذلك، كذلك هدم منشآت بناها أبناء المدينة قبل عقود قليلة، كشركة الكهرباء أو الفندق الأنيق الذي تحيط به حديقة من الزهور. هنا وهناك حلّت البنايات السكنية وتكوّنت حارات للعمل والسكن.

إنها جدلية عميقة وتبادلية ومحيّرة إلى حد بعيد. ثمّة هدم يعقبه توسّع في إنتشار البناء. في نهاية القرن الماضي وأوائل الحالي، كان للعمران الحديث هوية صارخة تفصح عن موديلات فرنسية وإيطالية أو غير ذلك، كان العمران يستجمع كل المعاني المرتبطة بنمط حياة. فسكّان المدينة القديمة يعرفون من ملابسهم وأعمالهم ولهوهم، بينما تتعرّف إلى سكّان المنطقة الحديثة من مظاهر مقابلة ومغايرة. كان العمران الحديث يقتحم العمران القديم، أما اليوم، فإن طفرة ديموغرافية وصلت ما بين القديم والحديث، فلم يعد القديم قديماً ولم يرق ما يعتبر أنه حديث إلى معاني الحداثة.

الملفت في كل ذلك أن لا هويّة، أكيدة، لا لإزالة بعض المعالم ولا لإقامة بديل عنها، ينبغي البحث عن المغزى بطريقة أخرى، فثمّة دوافع لهدم المباني الأقدم عهداً، التي لم تعد مريحة، لإقامة مبان ومنشآت أكثر ربحاً من الوجهة التجارية. ففي مكان مدرسة بملاعبها

ومساحاتها بل بقاعاتها الواسعة يمكن إقامة عدة مبان تجارية وسكنية. لكن هذا التفسير هو جزئي على كل حال، لأن تلك المباني والصروح العظيمة الحجم، بعد أن فقدت وظيفتها لا يمكن أن نتخيّل لها وظيفة أخرى في بنية المدينة. فلهذا يبدو وكأن مصيرها الممكن الوحيد هو الهدم. يمكن للشغوفين بالعتيق والقديم أن يحزنوا لرؤية هذا الخراب المتمادي ويمكن إقتراح تحويل هذا المبنى أو ذاك إلى متحف؟! لكنها أفكار غير قابلة للتنفيذ من وجهات نظر متعدّدة.

ثمّة إكتساح ديموغرافي بلا هوية تقريباً. يطبع عمرانها بطابعه، لا هو قديم ولا هو حديث. في هذه الجدلية من البناء والهدم وإعادة البناء ثمّة تمزيق لأجزاء من الهوية، وثمّة تآكل «للتراث» و«الحداثة» على السواء. أبنية لا رفعة فيها ولا قدر، ينعدم فيها الذوق والشكل، تهدف إلى ضمان شروط العيش الأولية.

أما أولئك الذين غادروا المدينة القديمة قبل أربعة أو خمسة عقود، وباعوا السرير النحاسي والصندوق الخشبي والخزانة ذات المرايا، فإن بعضهم ينظّم الجمعيّات لحماية هذا الأثر العتيق وهذا المسجد، وبعضهم يرتدّ إلى سوق العتيق للبحث عن مكواة الفحم وقدر النحاس. أنه بحث عن فتات الهوية المتناثرة، وحنين مخادع للذات في بحثها عن أصالة شكلية لكن الذين يظهرون الندم على دكّ تلك الصروح المتينة وعلى تداعي الأبنية التي يزيد عمرها على الخمسة قرون، لا يفعلون، ولا يملكون أن يفعلوا شيئاً للحفاظ على ما تبقّى.

إن المدن قاطبة متّجهة لتمثّل نماذج لا هوية لها تقريباً. وحركة العمران على النحو الذي تتمّ فيه اليوم، ومنذ بعض الوقت، تعبّر عن فقدان هوية، فلا نحن في الشرق ولا نحن في الغرب، نجتاز مرحلة تستعصي على التسمية والتعيين، فالمدن تنمو بشكل تعبّر فيه تعبيراً مطابقاً عن الأجيال الطالعة.

أوقات لهونا

ليس في الذكريات الأولى سوى مشاهد، مشاهد مفردة، كل منها يشبه لوحة معلّقة ضمن إطار. صور لأمكنة؛ ثمّة فسحة رملية واسعة تحيط بها منازل لجهة اليمين، وإلى اليسار حائط حجري يمتدّ بمحاذاة طريق تخترق الساحة، وأشجار خلف الحائط الحجري، أغلبها أشجار عتيقة من الكينا. وثمّة داخل المشهد الإجمالي تفاصيل يمكن عزل كلٍ منها على حدة؛ بوّابة خشبية في أعلاها مقبض معدني، واحدة من بوابات أخرى تطلّ مباشرة على الحارة، بالإضافة إلى تفصيل آخر، فبين بوابتين تفضيان إلى بيتين مستقلّين، يظهر ممرّ ضيق يفضي بدوره إلى بوّابات ومنازل داخلية.

مشاهد أو صور، تتأثّر ألوانها حتى في الذاكرة بتقلّبات الطبيعة، تغمرها أشعّة باهرة في الصيف، وتميل إلى الرمادي في الشتاء. لكن أرض الساحة تبدو وكأنها ارتفعت بضعة سنتمترات، أو كأن طبقة كثيفة من الرمل الأحمر قد غطتها. ثمّة في الإطار الإجمالي للمشهد نقاط وفواصل خضراء لأشجار لا تخسر لونها رغم تقلّبات الطبيعة من فصل إلى آخر. ويمكن للمشهد أن يتبدّل جزئيًا حين ننظر إليه من أعلى الحائط الحجري الذي غالباً ما كنا نعتليه ونجعله ممرّاً علوياً في لهونا، أو إذا وقفنا فوق سطح أحد المنازل، سيبدو المشهد عندها وقد اكتسب اخضراراً زائداً، وستظهر مئذنة ترتفع على الأفق.

لهوت في الساحة الرملية في السنوات السابقة لسن الدراسة، رمل كثيف أعطى للجهة التي يقوم بها حيّنا والأحياء الأخرى اسمه منذ

أوقات بعيدة. وكنّا نسمّي هذه الساحة الرملية، التي أضفت على الطريق الأسفلت لوناً مائلاً إلى الإغبرار، الحارة. لأن الحدّ الفاصل بينها وبين البيت هو البوابة الخشبية مع العتبة. كانت العتبة أكثر من فاصل رمزي بين الداخل وكل ما هو في الخارج. ومع ذلك فإن الحارة التي تبتدىء إنطلاقاً من الساحة تشمل البيوت المحيطة والطريق ثم المحلّات والدكاكين وأولاد الحارة.

مشاهد وصور لأمكنة محدّدة، نسخ متكرّرة، أو لقطات مختلفة لمشهد واحد. أمكنة خارج الأوقات ومجرّدة عن الزمن. لا يكسبها تعاقب الفصول سوى الألوان. كأن الذاكرة تعي الأمكنة قبل الأوقات، فتبقى ساكنة. ومع ذلك فإن الأوقات سرعان ما تتسرّب إلى المشاهد فتحرّكها، كأنها تحرّر كل مشهد من إطاره، فتنقله من السكون إلى الدوران وتملأها بالأشخاص والتعابير والكلام والضجيج. وكانت الساحة الرملية أمام بيتنا، والساحات الأخرى المجاورة والبعيدة التي عرفتها لاحقاً، أشبه بممرّات يتسرّب من خلالها الوقت فيبدّل المشاهد.

كانت الحارات في المدينة، مهما اكتظت واتصل عمرانها بعضه ببعض، تحتفظ بفسحات تحيط بها البيوت أو تمتد من إحدى جهاتها لتتّصل بخلاء واسع أو طريق يفضي إلى حارات أخرى. لذا فإن صبية الحارات يقضون أوقاتهم في تلك الساحات التي تمتلىء بهم وبضجيج لهوهم وألعابهم التي يصنعونها بأنفسهم. بينما تحافظ البيوت على هدوئها الأقرب إلى الصمت؛ لا ضجيج ولا لعب ولا كلام بحضور الكبار ونوم مبكر. ثم أن الأمهات يهجسن بالمحافظة على نظافة بيوتهن من عبث الأولاد، فلا يُسمح لهم بتعطيل نظام البيت الصارم. لذا تصبح الحارة ملاذنا لنمارس لعبنا ونقضي أوقات لهونا.

اللهو نقيض للوقت، لأن الوقت تسرّب إلى تلك الأمكنة على

شكل ضجر، ومن خلال ذلك السكون الذي يلفّ المنزل يتسلّل الوقت ويصبح ثقيلاً وكثيفاً كأنه يريد أن يملأ المكان أو يطبعه بطابعه، هكذا دخل الوقت إلى عالمنا الطفولي، فكنا نمرّره بالإنتظار أو نقطعه ونقتله باللهو حين يكون ممكناً.

لكننا لم نتعلّم الأوقات ونعانيها، إلا بعد دخولنا إلى المدرسة. أوقات صارمة نحسبها دقيقةً بعد دقيقة لا يمكن تمريرها إلّا بشق النفس، أوقات صارمة أعطت للهونا في الفرص مذاقاً. غير تلك الأوقات الرخوة في عطل الصيف التي لا نُحس بها والتي تمتزج وتذوب في لهونا.

نشأت في الحارة، وإذ كنتُ طفلاً يصعب إطعامي، فإن أختي الأكبر سنًّا كانت تحملني على ساعدها إلى حيث شجرة الكينا عند الحائط الحجري لتقنعني بتناول الطعام. وقبل سن المدرسة كوّنت أصدقاء الحارة الذين لا أذكر لهم أسماء أو وجوها.

لهَونا، أكثر ما لهَونا، في تلك الساحة الرملية، وحين كان إخوتي يذهبون إلى مدارسهم، أبقى وحيداً مع صبية صغار أقرب إلى سن الطفولة. لم يكن في عالم حارتنا خشية على الصغار، فثمّة جارة أو أخرى ترعى بنظرها الصبية في الحارة. ولم تكن السيارات لتدخل إلى هذه الساحة، أو تعبر الطريق الجانبية، إلّا في مناسبات متباعدة. لذا فإن الميدان كان ملكنا. وفي آخر المشهد الذي لا نتجاوزه أبداً يقع المسجد الفريد بين البساتين، وهو الحدّ الأخير لتجوالنا ولعبنا. مسجد مملوكي، عُلّقت لوحة معدنية زرقاء حملت إسمه وسنة بنائه قبل سبعة قرون، فتفاعلت أسطورته في مخيّلاتنا... جذبتنا أخبار مئذنته المزدوجة السلالم. وكنا نتهيّب دخوله، ولو حاولنا فإن القيّم كان سيمنعنا من ذلك.

لهوٌ أولي على غير هدى، هو أقرب إلى معاناة الأوقات التي

أخذت ترخي بثقلها على عالمنا الطفولي. كانت، الساحة آخذة بالإتساع في إدراكي لها، حين صرت أقدر أن أتجاوز بعض جهاتها، أو حين أغادرها مصحوباً بأحد أفراد العائلة، فأضيف أبعاداً أخرى إلى المشهد الساكن، ثمّة بيوت أخرى خلف البيوت التي أعرفها، ووجوه ودكاكين وبوابات، بل مداخل مسقوفة تقود إلى ممرّات حيث يقوم ما يشبه حارة أخرى. وصار بإمكاني أن أصل إلى نقطة أرقب منها مرور السيارات في الطريق العام حيث الضجيج يخالف سكون حارتنا في فتراتها الصباحية. في غمرة إكتشافاتي لتلك الإمتدادات إنتقلنا إلى حارة أخرى وغادرنا منزلنا. وداخل نفسي حزن، ولحظت أمي أنني أقل الأخوة فرحاً بهذا الانتقال.

الحارة التي انتقلنا إليها لم تكن بعيدة عن الأولى التي وُلدت فيها. والتي ندر أن عُدت إليها، فحفظت ذاكرتي عنها مشاهد لا تتبدّل.

حارتنا الجديدة قامت على ما يشبه هضبة، بضعة أشجار زيتون وممر وسط المرتفع لبلوغ البيوت التي في الأعلى. أسمينا المرتفع الصغير جبلاً. وفي الأسفل المفضي إلى الطريق العام كان ثمّة ساحة منبسطة تشكّل جزءاً من المشهد الإجمالي. أمضينا الوقت بين الساحة الترابية المنبسطة التي لا تخلو من أشجار معمّرة وبين الجبل المجاور. وما كنا نحسبه لهواً عشوائياً، كان ينطوي على نظام راسخ. نظام كان يعيش سنواته الأخيرة قبل أن تكسره حمّى التغيير.

ثمّة في كل هذا المشهد تقسيم ضمني يدفع الصبية إلى الحارة ويحتفظ بالبنات في الداخل. إفتراق مبكر؟ تلهو الفتيات في المنزل بألعاب تعددنها يدوياً من بقايا الأقمشة، بينما يلهو الأولاد بمواد أدنى إلى الطبيعة المحيطة بهم في الخارج. القسمة الأخرى التي كانت أساس اللهو في الحارة هو إفتراق الصبية إلى جماعات، يحلو لنا أن نسمّي الواحدة منها فرقة أو عصابة. وكان الإنتقال من مجموعة إلى

أخرى سهلاً، يحدث عند أول إختلاف. ولم يكن يوحدنا سوى إعتداء من أولاد حارة أخرى، فنتكتّل في حلف واحد سرعان ما ينفكّ عند انهزام الحارة الأخرى.

هذه الساحة التي نحسب أنها ساحتنا، كان يحدث أن يحتلّها الفتيان الذين هم على عتبة الشباب والذين ورثوا تقاليد الفتوّة. وكان حضورهم المباغت يطرد الأصغر سناً، أو يترك لهم حيّزاً ضيقاً أو يحوّلهم إلى مشاهدين. لا يخلو حضورهم الغامض من الإستعراض والمباهاة. وعادة ما يبشّر قدومهم في وقت واحد بشيء ما: لهو عارض أو مباراة بقطع أعواد القصب إلى نصفين بضربة واحدة من سكين، أو معركة محتملة لا تخلو من عنف أو مجرّد إستعراض للقوة بإبراز الأمواس وإخراجها من تحت الأحزمة الجلدية.

كانت الساحة التي تحسب أنها خاصّتنا، هي خاصّة الباعة المتجوّلين ايضاً، وخصوصاً الذين يبيعون الحلوى والسكاكر والمشروبات المعدّة يدويًا، والكعك في أوقات العصر والمثلّجات في أيام الصيف. والساحة نفسها تتحوّل إلى مهرجان صاخب في مناسبتي العيدين، لا يخلو الأمر من نظام راسخ كان لا يزال فاعلاً. ففي أيام رمضان تُنصب الأراجيح الخشبية انتظاراً للعيد الذي نسمّيه الصغير. ولم نكن نتساءل أين تختبيء هذه الآلات الخشبية التي يحكم ربط أعوادها بحبال غليظة طوال ما يقرب من عشرة أشهر، ومن يمتلكها؛ لا بدّ أن الأمر يرقى إلى أزمان بعيدة، آلات خشبية عتيقة حافظت على زهوّها يتوارثها جيل عن آخر ويتوارث معها حقّ استخدام هذه الساحة، التي تحف بها بضعة أشجار، كميدان للعيد وطقوسه.

أحد الأنظمة التي تحكم الحارة كان يقضي بترك الصبيان عند بلوغهم سن الفتوّة الساحة لمن هم أصغر سنّاً. ولم تكن الحارة

لتحتمل لهو الفتيان، والحق أن المدينة ككل، كانت تدفع اللهو إلى خارجها ما عدا لهو الصبيان الصغار الذين يبقون بجوار بيوتهم. لذا كان الفتيان يخرجون إلى ثلاث جهات في ظاهر المدينة: الشرفة لجهة الشرق، والبحر لجهة الغرب، والجنوب حيث الطريق الساحلي. ولم تكن هذه الأماكن من إختراع الصبية، ولكنها من تدبير المدينة، فكل مدينة تخلق خارجها الذي يقع خلف أسوارها الوهمية. كان بلوغ تلك الأمكنة يتطلّب عبور بساتين الزيتون لجهة الشرفة، وبساتين الليمون لجهة البحر أو الطريق الساحلي، وفي المواسم المحدّدة في أوقات محدّدة من كل عام، فإن أهل المدينة كباراً وصغاراً نساءً وأطفالاً، يزحفون لبلوغ تلك الجهات حيث يقضون نهاراً كاملاً من اللهو وخصوصاً في مناسبات الربيع.

لم يتداعَ مشهد حارتنا. إلّا حين أخلفت مواعيدها مع زمنها المعهود، فداهمتها أوقات أخرى.

الليل

إعتدنا على الليل يأتي مبكراً بعد غروب الشمس بقليل. في الشتاء تهبط الليالي مسرعة بعد عودتنا من المدرسة بوقت قصير. فالشتاء حليف الليل. أما في الصيف فكنّا نحظى بطرف من أول السهر. وبالرغم من كون الليل يمنحنا طمأنينة التئام أفراد العائلة، إلا أنه لم يكن يخلو من الخوف بسبب العتمة أو القصص الخرافية المفزعة. كانت إحدى النسيبات البعيدات لوالدتي تركية الأصل، في زياراتها التي تدوم كل واحدة منها عدة أيام، تسخى علينا بقصصها المرعبة التي تداهمني في الليل، هي أول من أدخل إلى نفسي معنى الخوف. كانت مساحة الظلام الواسعة غير المتناهية تترك المجال لتداخل الخرافات بقصص الجن التي تقلق ليالينا.

كانت زيارات الأقارب في تلك الأيام تمتدّ لعدة أيام، حتى لو كانوا يعيشون معنا في ذات المدينة. إبان كل زيارة، كان نظام المنزل ينقلب رأساً على عقب، وخصوصاً ما تعلّق بترتيبات النوم؛ زيارات أدخلت الفوضى على ليالينا، نستمع خلالها إلى أخبار لم نألف سماعها، يُسمح لنا بإطالة السهر لساعة من الوقت قبل أن يأوي الجميع إلى النوم. أحببنا تلك الزيارات العائلية التي تعطينا الحجّة لإهمال واجباتنا المدرسية.

عموماً، يقع الليل في الخارج، أي خارج المنزل. الليل البهيم المعتم الذي يبعث المخاوف والأساطير. فالمباني والطرقات والدروب الضيّقة تغرق في ظلام لا متناه، واقع الأمر أن الخوف

من الليل لا يتناسب مع الأمان الذي كانت تنعم به المدينة. إلا أن للخوف بنيته المستقلة التي تحتضن مزاجاً محافظاً يخشى المغامرة. لذا، فإن المدينة تستسلم لليل تماماً وترضخ له دون مقاومة.

ليالٍ طويلة ولكن متقطّعة توقظنا أثناءها الصفّارات: تلك التي ترسلها السفن الراسية قبالة المدينة، أو تلك التي تعلن إقلاع القطارات من المحطّة. وفي أول الليل أو عند منتصفه، كانت صفّارات الحرّاس الليليين الذين يحملون الهراوات ويتمنطقون بمسدّسات، توقظنا من نومنا. كانوا يرسلون فيما بينهم إشارات متكرّرة عبر الصفّارات التي تتوقّف فجأة، فنستأنف النوم بعد برهة.

يشهد أول الليل عودة الرجال من أعمالهم إلى الحارة التي تحوي منازلهم؛ من هنا فإنها تشهد جلبة تسبق استتباب الصمت فتدبّ حركة نشطة في الجوار. بينما تكون الأسواق قد أقفلت، فتستمر الدكاكين بفتح أبوابها بانتظار زبائن العشاء. في تلك الساعة من أول الليل تنعدم الحدود بين البيوت والحارة، فينزل بعض الرجال ببيجامات النوم للشراء وتستمر هذه الحركة النشطة حتى الساعة التاسعة وقت انحسارها التدريجي، فيمتد ظلام السوق إلى الحارة خصوصاً بعد أن يقفل المقهى أبوابه. فتفرغ الساحة والطريق والدروب إلا من المارّة المتأخرين. لم يكن ثمّة في محيطنا سهر، والمقهى الوحيد الذي يستمر باستقبال بعض شاربي الشاي في الساعات الأولى من الليل، يقفل ليستأنف النهار مبكراً قبل انبلاج الصباح.

يبدأ الليل مبكراً كما أنه ينتهي مبكراً، وتبدأ المآذن بإعلان نهاية الليل قبل ساعة أو ساعتين من ظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فتبثّ تلاوات قبل صلاة الفجر. ثمّة حركة أولى تبرز مع أولئك الذين حول الرابعة فجراً يتركون منازلهم قاصدين المسجد لتأدية الصلاة، لا يسبقهم سوى عمّال الأفران. وعند أول أنوار

الصباح يكون المقهى مستعدّاً لاستقبال زبائنه؛ من عمّال مياومين ينتظرون أرزاقهم، وحرفيّين يستعدّون ليوم عمل طويل. وحوالي السادسة يفتح أصحاب الدكاكين أبوابها. وسرعان ما يسري النهار في جسد المدينة ابتداءً من سوقها.

الليل أشبه بقدر يومي، أو طوفان للظلام لا يمكن تفاديه كأنه جيش عدو نستعين عليه بالحراس الذين يحملون الهراوات. ويبدأون تجوالهم مع أول هبوط الظلام. كان هؤلاء يحرسون الحارات والأسواق ويدقّقون في أقفال الدكاكين، ويتفرسون في وجوه المارة، يواصلون بذلك طقوساً مغرقةً في القِدم، فهم ورثة العسس في أزمنة المدينة القديمة. كانت ليالي المدينة التقليدية أشبه بلياليها قبل مئات السنين، كأنها تقفل أبوابها وأبواب حاراتها، ويصبح السير في أزقتها ودروبها ضرباً من الشجاعة. وفي ملامح مدينتنا يظهر كيف أن الأجيال المتعاقبة قد استعانت على الليل بالصلاة.

الحق أن الليل كان محاصراً بصلاتي العشاء والفجر، مسافة سبع أو ثماني ساعات، يعمد المصلون إلى تقليصها إذ يمدون صلاة العشاء لساعة أو أكثر، ويبكّرون في الحضور إلى صلاة الفجر قبل موعدها بنحو الساعة أيضاً. وكان إحياء الموالد وليالي أخرى مثل نصف شعبان، فضلاً عن حلقات الذكر لدى جماعات التصوّف مناسبات للاستقواء على الليل وتبديد وحشته. وفي شهر رمضان من كل عام كانت المدينة تتجرأ على الليل وتستخف به، بل تبعثره بمدائح المسحرين وآلاتهم، بأصوات الباعة المتجوّلين وضجيج الساهرين في المقاهي أو المنازل، فتقضم المدينة أطراف الليل بالخروج إلى الأسواق، ووصل المسافة بين الإفطار عند الغروب وساعة السحور قبل الفجر.

وما عدا ذلك، فقد كان الخروج لا يحدث إلا اضطراراً، وهو

أيضاً خاصة المخمورين والمشرّدين، أو هكذا تراءى لنا. . ولكن من يجرؤ على المرور بالقرب من بعض البيوت والعمائر المهجورة، التي يهمس تلامذة المدرسة، نقلاً عن الكبار، أنها مسكونة، فيتجنّبون المرور بقربها في النهار. أما الليل فمسرح لنسج القصص حولها.

كان ثمّة ليل آخر، ما كنا لندركه في تلك الفترة من طفولتنا وصبانا، شق طريقه ونشر نموذجه في الحيز الحديث من المدينة، ليلٌ مُضاء، لا تساوره مخاوفنا في العتمة، ولا ترتاده العفاريت التي تخيفنا. واقع الأمر أن آباءنا وأهل المدينة لم ينغمسوا في الليل الانتدابي الذي أقام في المدينة الكولونيالية. كان الليل آنذاك يفصل بين نمطين من العيش: عيش الفرنسيين ومن شاركهم نماذجهم، وعيش الأهالي في مدينتهم التقليدية. لقد تمركز الليل الانتدابي في وسط المدينة الحديثة حيث «الأوتيلات» والبارات والسهر المختلط. وخلط الأهالي بين الواقع والخيال في حديثهم عن الليل الآخر الذي يقوم على بُعد أمتار من ليلهم.

كانت الحداثة التي طرأت في نهاية القرن الماضي تعني قهر الليل وتقليصه على قدر إمكانيات ذلك الزمان. فالأسواق والحارات التي تقفل أبوابها ليلاً وتغرق في حلكة الظلام أضيئت بمصابيح الزيت الشاحبة، مصابيح زيت ضمن زجاجات ترتفع فوق أعمدة خشبية متباعدة نُصبت عند المنعطفات ومداخل الأزقّة، يضيئها المشعلاني المكلّف بهذه الوظيفة في أول الليل مستعيناً بقصبة مضاعفة الطول، ويعود لإطفائها في الصباح. كانت مصابيح الزيت واللمبات الكهربائية التي حلّت مكانها فوق الأعمدة الخشبية نفسها باهتة، بالكاد تعين المحتاج للسير ليلاً على سيره وتجنّب العثرات.

تسلّلت الكهرباء إلى فضاء المدينة وبدّدت جانباً من وحشة الليل. وعلى ضوء المصابيح التي ازدادت توهّجاً، تسلّلت الحداثة الغربية إلى

الحيّز الذي أقامته كسارق أو كماجن. واستمر الأهالي، في السنوات التي أعقبت جلاء الفرنسيين، على حذرهم من المدينة الحديثة الكولونيالية، التي حافظت على ليلها الانتدابي، فبقي ارتياد هذا الحيّز الحديث ممنوعاً علينا في غير الأعياد.

في الخمسينات كان للشباب، وخصوصاً أولئك الذين انخرطوا في سلك الوظيفة الرسمية بشكل خاص أن يعقدوا أواصر الإتصال بين ليل المدينة الحديثة والمدينة القديمة - فأخذوا يستكشفون الليل الذي كان خاصة أيام الانتداب واستمرّ بعد رحيل صنّاعه. وحدثت مبالغات في تمثل الليل الآخر فتطاول السهر والتسكّع حتى ساعات الفجر.

لم يحدث أن وحّدت المدينة ليلها، ولكن حدثت صياغات جديدة. كانت أيام الراديو في وسط الخمسينات حاسمة في فك عزلة المدينة وانطوائها على أخبارها وقصصها، وفي تبديل حثيث لعادات الليل، كُسِر صمت المساءات بأصوات المذيعين والمطربين التي غدت مألوفة. الراديو الضخم الذي يحتلّ ركناً مبجلاً وثابتاً فوق طاولته الثابتة الخاصة به في غرفة الجلوس، وفي عصره الذهبي في سنوات الخمسينات، كان الراديو أبرز قطع الأثاث المنزلية إحاطة بالعناية. هدم الراديو جانباً من الجدار الذي يفصل بين الأجيال داخل العائلة، والجدار الذي يفصل الليل عن النهار. وكان وسيطاً لغوياً وسياسياً، وروج لشعارات الأنظمة الوطنية. وكان علامة حاسمة في اكتشاف المرأة لعالم يقوم خارج نطاق الأسرة والمنزل، فاستمعت إلى مسلسلات إذاعية وإلى تسجيلات لأفلام مصرية تدور موضوعاتها حول علاقة الحب بين المرأة والرجل. لقد أعان الراديو المرأة خاصة على اكتساب مفردات ما كانت تعرفها، ثم جعلها أكثر استعداداً لمغادرة عالم المنزل الضيق. لقد اقتحم الراديو السوق أيضاً، واحتلّ مكاناً مرتفعاً ومميّزاً في دكاكين الباعة، وطغى صوته على الأصوات

الأخرى والنداءات التي تميّز سوق المدينة.

لم توحّد المدينة ليلها، فحافظت الأسواق الداخلية والحارات القديمة على هدوء لياليها، بينما لبّى الأهالي نداء الحداثة المضاءة بالأنوار في الشوارع العريضة والأحياء الآخذة في الإرتسام.

كانت الحداثة مستعينة بأدواتها تبدّد الليل وتريد أن تحوّله من عدو إلى عميل لترويج أنماطها، فاستجابت خطط المدينة الجديدة لهندسة تقاوم الغرق في العتمة: الشوارع العريضة والمستقيمة المضاءة بأنوار متلاحقة من مصابيح الفلوريسانت والنيون ذات الأشعّة البيضاء. وأخذت واجهات المحلّات المضاءة ليلًا تؤنس المارة والساهرين الذين يتجمعون في مقاهي ومطاعم وأمام دور السينما التي تبالغ في استخدام الأنوار الملوّنة لجذب الأنظار. كان الحرّاس الليليون يتجوّلون أيضاً في تلك الأحياء الحديثة، فكنا نسخر من مشهدهم اذ يسيرون مع الساهرين والمتسكّعين كأنهم أخطأوا الليل الذين يريدون حراسته.

ليلنا التقليدي الذي يعادل التئام العائلة واجتماعها حول المائدة أو حول نار الشتاء، تلاشى أمام ليل آخر صار يعني الخروج والسهر في أمكنة عامّة. كأن تلك الأنوار التي ما انفكّت في الانتشار والتوهج تستدعي مناسبات وطقوساً جرى التآلف معها بسرعة. طردت الأنوار الليلية الخرافات التي طالما أحاطت بأخبار الليل، وكنّست عتمة الشوارع كأنها طبقة رقيقة من الغبار. وكان اقتحام المرأة لليل في سهراته المختلطة، كما يحدث في المشاهد السينمائية التي بهرت النظارة لتوها، كان إيذاناً بتبدّل حاسم في قيم المجتمع والعائلة، وانبثاقاً لنمطّ عيش كأنه حلّ فجأة بلا مقدّمات.

لم يكن شيء قد شهد انقلاباً في المعنى مثل الليل، الذي شهدنا تحوّله في صبانا ومطلع مراهقتنا. كأن المدينة الحديثة قد ارتفعت في

جنح الظلام الذي استعان عليه البناؤون بمصابيحهم الكهربائية. لكن الليل المضاء بالأنوار المتراصّة وبالواجهات المضاءة بألوان مختلفة في ساحات محددة كأنها أجزاء من النهار في وسط الليل، قد أعاد ترتيب الأوقات. أو كأنه ابتكر زمناً آخر. كان الليل التقليدي يقع خارج الزمن، أو كأنه كل مساء يبعث الماضي السحيق فيأخذنا إليه، أما الليل المضاء بالأنوار الخلّابة، فقد أحلّ مكان القصص الخرافية المفزعة الكثير من الوعود الخلّابة هي الأخرى.

البحر المتوسط

كان بإمكاني أن أرى البحر من شرفة منزلنا على امتداد ساحل طويل. وأن أرى بواخر النفط التي تنتظر دورها لتملىء خزّاناتها من المصفاة الواقعة إلى شمال المدينة.

ولطالما وقفت صامتاً وحيداً أحدّق في سير باخرة مسافرة حتى تغيب نهائياً في الأفق. وفي الليالي الصيفية، بل حتى في بعض أيام الشتاء، كنتُ أحصي عدد الأنوار التي تنبعث من زوارق صيد الأسماك. كان البحر يحتلّ المشهد الأفقي المتّسع الذي يعقب اخضرار بساتين الليمون. كان اللونان الأخضر والأزرق يحتلّان المشهد إذاً قبل أن تحجبها العمارات التي أخذت بالإرتفاع. كان البحر هو البحر بلا إسم ولا تعريف، وكانت دهشتنا عظيمة حين أدركنا في الصف الرابع الإبتدائي أن البحر الأبيض المتوسط الذي يرتسم في خرائطنا المدرسية هو نفسه الذي نراقبه من الشرفة المطلّة.

تبعد مدينتنا عن شاطىء البحر ما يقرب من ثلاثة كيلومترات، مسافة لا تتعدّى الساعة من الزمن سيراً على الأقدام. إلّا أن أهل مدينتنا لم تكن لهم الخبرة البحرية ولم يتمثلوا تقاليد البحر. كانت مدينة داخلية ومحافظة. وتركت لمينائها (الأسكلة) الأقرب إلى أن يكون مدينة قائمة بذاتها أن تستسلم لعادات البحر وما يحمله من أقدار. كانت «الميناء» متنزّهاً موسمياً لأهل مدينتنا. وكان من عاداتنا أن نعبر إليها في عربات الخيل، ثم في سيارات الأجرة التي كانت تجتاز المسافة بما لا يتعدّى الدقائق الخمس. نقصد الميناء في العيدين،

الفطر والأضحى، إذا ما كان الموسم مناسباً، بغية ركوب البحر على متن قوارب الصيد التي يحولها أصحابها بمناسبة العيد إلى حافلات بحرية تنزه الصبية حتى أقرب جزيرة. وكان الصبية يحدّثون في اليوم التالي عن إتّساع البحر وعمقه وأمواجه؛ هذا الطقس الذي هو من جملة طقوس أولاد العيد، الذي لا بدّ من تجربته ولو مرة واحدة.

لم تكن مدينتنا لتكتسب عادات البحر، ولم يكن يحتلّ شيئاً يُذكر في ثقافتها اليومية. لا صيادو سمك ولا أناشيد تذكر البحر. لا حكايات أو مغامرات تروى. ولم تدخل ثمار البحر في أطباقنا إلّا نادراً. وتركنا كل ذلك لأهل الميناء، الشديدي الفخر بمدينتهم كأنهم من مدينة أخرى في عالم آخر.

كان ثمّة بحار في مخيّلاتنا الصغيرة: البحر الذي يتراءى من الشرفة أمامنا، هو غير بحر الأسطورة في قصص السندباد، وغير بحر القراصنة في الأفلام، وغير ذلك البحر الذي أخذت تتكوّن صورته الواقعية من صيادي الأسماك والشباك الزرقاء بلون البحر وريّاس المراكب والسفن.

لم يصبح الشاطىء البحري مكاناً للتنزّه والتمتّع بالشمس إلّا في أوقات قريبة العهد. كان الفرنسيّون والإنكليز، الذين بنوا المصفاة في زمن الإنتداب، هم الذين أدخلوا عادة الإستمتاع بأشعة الشمس والسباحة في البحر، فبنوا تخشيبات في مكانين أو اكثر من الشاطىء، وجاراهم في ذلك من قلّدهم في عاداتهم.

أخذ صبية المدينة يعقدون صلة متأخّرة بالبحر. فبعد طوفان النهر، لم تعد السباحة النهرية أمراً محبّذاً، بل أن البدء بتوسيع مجرى النهر قد أدّى إلى انهيار تقليد بأكمله، فبدأ عهد السباحة البحرية التي اجتذبت الصبية والشباب دون الكبار الذين ما ألفوها أصلاً. في سنوات الصبا تلك، عادة ما كُنت أذهب إلى البحر سيراً على الأقدام،

مثل سائر الصبية، نخترق الدروب الضيقة بين بساتين الليمون لنصل إلى شاطىء حيث يقوم صف من «الكابينات» غير المسقوفة، وكنّا نستخدم إحداها لقاء أجر زهيد، ولكن في مرات أخرى كنّا نبدّل ملابسنا بجوارها، في الجهة المقابلة لمجموعة من خمس غرف مشيدة من القصب ومخصّصة للعائلات. كنّا نرغب بالمرور خلفها أو أمامها لنراقب ما بداخلها بقدر ما تسمح لنا أعواد القصب المتراصة من إستراق النظر. لكن النسوة القليلات العدد، إذا وجدن، كن ينزلن الماء بملابسهن فننتظر إذاً خروجهن من الماء مبتلّات.

أقيمت الغرف الخمس المشيدة من أعواد القصب في جهة على مسافة من الكابينات الحجرية. وكان الذين هم أكبر سنّاً يتفادون المرور أمامها حفاظاً على حرمتها. وكان عرفاً ألّا يقترب أحد من المكان المنزوي المخصّص للنساء. إذا وجدن، فأنهن ينهمكن بمراقبة أطفالهن. كان الشاطىء متواضعاً يحافظ على خصائصه المتقشّفة.

لم أكن لأقيم إذاً صلة بين الشاطىء البحري الذي يغمس الصبية أجسامهم في مياهه وأمواجه، بذلك المشهد البحري الذي أراقبه من الشرفة. فقد كان اكتسب بعض السمات الأهلية حين أصبح مسبحاً متواضعاً يرتاده الصبية ويطلقون عليه اسم «الكازخانة»، نسبة إلى خزّانات النفط هناك قبل بضعة عقود من ارتيادنا له، وقد احتفظ المكان باسمه العثماني. وقد أزيلت الخزّانات وبقي الإسم ليدلّ على الزمن الذي اصبح فيه المكان مأهولاً بروّاد الصيف.

لم يكن لهذا المكان المهمل في مطلع القرن أية سمة، سوى البرج الصليبي، المهجور بدوره، الذي تحفّ به شجرات باسقات تجعله مرتعاً لنسج الأقاصيص الخيالية كما فعلنا. والرهبة التي يثيرها البرج ومحيطه في نفوسنا، جعلت منه في خبريّاتنا موئلاً للأفاعي والنسور. لم يكن ثمّة نسور، ولكن الوطاويط أقامت أعشاشها بين أحجاره

الرملية. على مقربة منه أقام الفرنسيون محطّة سكك الحديد في الموقع الذي يفصل بين البرج الصليبي وبين مدخل الميناء (البوابة)، وفي الجهة الأخرى من البرج كان يقوم المسبح البحري «بكابيناته» وغرفه القصبية.

إحتفظت محطة سكك الحديد، بعد ما يزيد على ربع قرن على إنقضائه، بكل التقاليد التي خلّفها عهد الإنتداب: اللون الأصفر الذي يغطّي جدرانها، وشجرة الدلب في وسط الكافيتريا، الحمّامات الخارجية، البوابات الحديدية المفرغة، ثم الأحرف اللاتينية في أعلى المدخل التي تشير إلى مختصر إسم الشركة: (D.H.P.)، دمشق، حلب، وملحقاتها، وكان موظّفوها يحملون بعض تقاليد الانتداب، يتذكرون الإنكليز وعهدهم القصير في نهاية الحرب الثانية، وصفة الإنكليز النظام والتقشّف. وكنتُ أحسبُ أن فرنسيين أو إنكليز يديرون أعمال المحطة بالخفاء. وكان العاملون والموظّفون يكثرون من إستخدام المفردات الأجنبية في أحاديثهم وخصوصاً حين يتكلمون بواسطة الهاتف الميكانيكي مع المحطّات الأخرى في شؤون العمل. أغلب العاملين كانوا من أصول متفرقة، نقلوا من مدن أخرى، واستقروا هنا، بينهم أرمني ويوناني وحلبي وسواهم. وشكّلت المحطّة وسطاً دينياً مختلطاً.

أضفت المحطّة مسحة من الحياة داخل هذه البيئة الموحشة، خصوصاً حين كان القطار يصل من حمص أو حلب، قطار الركّاب السريع الذي أسمع صفير وصوله في المنزل. فتحصل جلبة مفاجئة ويمتلىء الرصيف بالأشخاص والحقائب وسرعان ما يتلاشى كل شيء في دقائق معدودة.

كنت أعرج على محطّة سكة الحديد في الصيفيات. في طريقنا إلى مسبح «الكازخانة»، كنا نتوقّف في المحطة لبعض الوقت. كان أبي

موظّفاً في مكاتبها، فكنت أتنقل بين الغرف كأنها خاصتنا. وأتسلّق شجرة الدلب، وألهو بالقطارات المتوقّفة. وكنتُ أفضّل لعبة القطارات على السباحة. قطارات حقيقية سوداء ضخمة بينها مقصورات للركاب نجلس على مقاعدها الخشبية ونمثّل لعبة السفر. ندخل من الأبواب الخلفية ونخرج من النوافذ ونتسلّق السلالم الحديدية حتى نستقرّ فوق سطوح المقصورات. ظننّا أن لنا نصيباً في هذه القطارات، وحين سألت المعلمة أختي الصغيرة أول دخولها المدرسة: ماذا يعمل والدك، أجابت: بائع قطارات.

صرتُ ميّالاً إلى وسطي المديني الموزّع بين الحارة والتلة الرملية التي نعتبرها دغلاً، نصفي حساباتنا العنيفة مع أولاد الحارة المجاورة فيها. وبين محطة سكة الحديد وشاطىء البحر، كانت أمي تأخذنا في الصيف لقضاء أيام عند أخوالي في الريف القريب، فأرغمها في اليوم التالي على العودة إلى المدينة. لم أطق حياة هذا الريف القريب الذي لا يختلف أهله عن أبناء المدينة بشيء يذكر، لكنني كنت أفضّل رطوبة المدينة ولزوجة هوائها الممزوج بكآبة بعد الظهر في أيام تموز وآب، على جفاف الهواء الريفي. فأعود إلى المدينة التي أحلم بقطاراتها وشاطئها الرملي والتلة المجاورة لحارتنا.

لم تكن محطّة سكة الحديد العلامة الوحيدة من ذلك الزمن الإنتدابي الذي عقد كل تلك الصلات بين ضفاف البحر المتوسط. الواقع أن كل المباني ذات اللون الأصفر تنتمي إلى ذات الزمن، مثل ثكنات الجيش في «القبّة» المشرفة على المدينة. ومثل منشآت المصفاة عند المدخل الشمالي، بل أن بعض المباني التي تنتمي إلى أواخر العهد العثماني، مثل سرايا التلّ، أو المدرسة السلطانية، ومثل مدرستنا، كانت تحتفظ باللون الأصفر الداكن لون المباني الرسمية والحكومية، إندمجت في مشهد واحد أعطى مظهر أول الحداثة لهذه

المدينة التي حملت فوق منكبيها عصوراً سالفة.

تلك المباني التي كانت لا تزال منتصبة إحتفظت بما هو أكثر من اللون الأصفر والأحرف اللاتينية عند مداخلها الرئيسية. فقد احتفظت ثكنات الجيش بالأنظمة الفرنسية لوقت طويل، كان بإمكاني أن أصادف، إذا ما ذهبت إلى شاطىء البحر في الصباح الباكر عودة صف طويل من الجنود بخوذاتهم المعدنية، يتقدّمهم ضابط على حصان وخلفهم عربات خشبية تحمل الأعتدة تجرّها البغال. كان المشهد برمّته أشبه بلقطة سينمائية منتزعة من فيلم من أفلام الحرب العالمية الثانية، لا علاقة له بالبيئة التي يتنقّل فيها. لكن موظّفي شركة (الأي،بي،سي) كانوا أشدّ احتفاظاً بالتقاليد التي أخذوها عن الإداريين الإنكليز. فقد أقاموا خارج المدينة منعزلاً مسوّراً بأسلاك شائكة لا يدخله سواهم حيث يمارسون هواياتهم الرياضية: السباحة والغولف وكرة القدم. ثم أنهم أقاموا نادياً وسط المدينة لسهرات السبت المختلطة. وبالقرب من ناديهم كان ثمّة مكتبات لبيع المجلّات والكتب الإنكليزية. وفي الجهة الأخرى من وسط المدينة، كان ثمّة مكتبات تبيع المجلّات والكتب الفرنسية على مقربة من مدرستي الراهبات والفرير.

لم تكن مدينتنا قد إستسلمت لتقاليد المدن البحرية، ولكن أكثر مما كنتُ أظن بكثير، فإن مدينتنا التي ترى البحر من نوافذ بناياتها المرتفعة، أخذت بنصيبها من ثقافة متوسطية، وأدمجت في تقاليدها نمط عيش متوسطي أخذ يتغلغل عند شواطئه الآسيوية منذ نهاية القرن التاسع عشر. وقت كان لكل دولة أوروبية قنصلها المقيم، وهو عادة من أبناء أرثوذكس المدينة، أو من موارنة الريف المجاور. في نفس الوقت الذي أنشئت فيه مدرستا الراهبات والفرير، ظهرت أول المباني خارج الأسوار التقليدية للمدينة القديمة.

توافد العشرات من جنسيّات متوسّطية مختلفة، فرنسيون وإيطاليون، وآخرون عبروا المتوسط قادمين من بولونيا وبلاد التشيك وغيرها؛ رجال دين وعسكريون جاءوا لإدارة المدارس التي افتتحتها الإرساليات، ولأغراض السياسة والتجارة. والتأثير المتوسّطي لم يأت من الضفاف الأوروبية الغربية، بل جاء من الجزر: مالطة وقبرص وخصوصاً مع المهاجرين الكريتيين. وقد اجتذب إنشاء مقهى حديث، متنزّه على الطراز العثماني، اجتذب النادلين من اليونان الذين كانوا يتخاطبون فيما بينهم بلغتهم، فحفظها من تعلّم المهنة عنهم من أبناء المدينة، فصارت المفردات اليونانية رموز تخاطب بين النادلين في المقاهي. وعمل هؤلاء اليونان ذوو الخبرة في الفنادق التي أقيمت لاحقاً في فترة الربع القرن الإنتدابية، وأدارت عائلات إيطالية ويونانية دكاكين لبيع الخمور على تخوم المدينة القديمة، سميت خمارات. واختصّ الأرمن الذين وفدوا منذ بداية القرن ببيع السندويشات في مطاعم امتازت بضيقها وأناقتها، ووقف أرمن بقبعاتهم خلف آلات تصويرهم المرفوعة على قوائم في وسط ساحة المدينة الحديثة لالتقاط الصور التذكارية لمن يرغب من العابرين والوافدين من الأرياف القريبة.

كل تلك السمات كانت لا تزال قائمة حتى نهاية الخمسينات. لكن الفترة الإنتدابية هي التي نقلت التقاليد المتوسّطية إلى مدينتنا، فرُصفت الشوارع بأحجار الغرانيت السوداء لتسهيل مرور السيارات القليلة آنذاك، وأقيمت الحديقة العامة التي زرعت بأزهار ذات ألوان بغير روائح إستوردت خصّيصاً لغرض تزيين الحديقة التي تتوسّطها بركة ذات نافورة لا نملّ من تأمّلها، حديقة هندسية غير تلك البساتين الأهلية، وأزهار متناسقة بغير رائحة، لا تشبه شجيرات الورد والقرنفل والياسمين المبعثرة بين البيوت القديمة. وأحيطت الحديقة بأشجار

«الفوكس» الشديدة الإخضرار والنمو بدون ثمر. وأصبح الشارع الرئيسي شارعاً للفنادق والمقاهي ومحال المصورين وبائعي السندويش الأرمن، جادة يرتادها المتنزّهون عند المساء، وفي الوقت الذي تقفل فيه المدينة القديمة ويقفر سوقها، تدبّ الحياة أول الليل في المدينة ذات السمات المتوسّطية. ولا يخلو الشارع أو النادي أو المقهى من حضور النساء الفرنسيات القليلات أو من نشد صحبتهن والتشبّه بهن من النساء البلديات وخصوصاً الريفيّات اللواتي هبطن المدينة.

جادة كولونيالية، يتّخذ من مبانيها قادة العسكر وقادة الشرطة مقرّات لهم، ويجعلون من فنادقها ومقاهيها أمكنة للهوهم الذي تنسج حوله القصص. لم يكن في المدينة القديمة حيث يقيم الأهلون مكان لهذه العادات والتقاليد الوافدة، فانتشر الطابع المتوسّطي في الوسط الحديث الآخذ بالنمو والإتّساع لتوه، الذي ولّد شارعاً بعد شارع حتى قامت مدينة حديثة على تخوم المدينة القديمة المختنقة.

كانت «الميناء»، باعتبارها الجبهة المتقدّمة للمدينة، ونافذتها البحرية، أكثر إستجابة لهذا التنوع المتوسّطي ورضخت له، كانت شوارعها أشبه بشوارع الموانىء اليونانية. وناسها، بيناطيلهم القصيرة وقبّعاتهم البيضاء، يبدون كأنهم مسافرون قدموا من ضفاف آخرى. والطريق التي شُقّت في نهاية العهد العثماني. لتصل بين المدينة والميناء، صارت مسرحاً لنمو نمط من البناء، مثل وسط المدينة الحديث، يكرّر مشهد المدن المتوسّطية التي تغمرها الشمس في النهارات، وتدبّ فيها الحياة في الأمسيات.

إنجذب بعض الأهالي إلى «المتوسّطية» التي لم تكن عقيدة ولم تبلغ هذه المرتبة، بل كانت نمط عيش تمثلته بشكل خاص فئات من أبناء المدن تبعاً لمراتبهم ومعتقداتهم ودرجاتهم في العلم، فانغمسوا في هذا النمط الهنىء الذي عرف عصره الذهبي في النصف الأول من

القرن. وقد ظنّت النخب من المتعلّمين والتجار والسياسيين أنها عَثرت على نموذج العيش المثالي، الذي يقرّبها من أقوام تعيش على الضفاف الأخرى لهذا البحر الذي أراقبه من شرفة منزلنا.

في تلك الفترة حيث كنت أذهب إلى شاطئ البحر، أو إلى محطّة سكّة الحديد، سيراً على الأقدام، كنتُ أعبر تلك المساحة الحديثة التي امتدّت بين حقول الليمون لتقيم نموذجاً للحياة العصرية التي ينتظمها نمط العيش المتوسّطي. كانت كل الأشياء في مكانها كما استقرّت في الثلاثينات والأربعينات، قبل ما يزيد إذاً على ربع قرن من الزمن من عبوري الصيفي وتفرّسي المندهش. كل جنسيات وأديان وثقافات المتوسّط كانت هنا، أمرّ بها في عبوري، ممثّلة بنسب مختلفة، تقيم احتفالاتها في مناسبات خاصة، وتكمل مشهد التنوع والتسامح والعيش الهنيء.

كان بعض الصبية والشباب من الأهالي يشاركون في تلك الاحتفالات التي يقيمها النادي اليوناني أو النادي الأرمني والأمسيات التي يحييها المركز الفرنسي. كنّا نذهب للتفرج على سبيل الحشرية الصبيانية المعتمدة على حب استطلاع فتياتهم.

في تلك الفترة التي امتدّت من صيف إلى أخر.. كنتُ خلال سيري في الطريق إلى البحر أتطلّع إلى المحال في الوسط التجاري الذي كان لا يزال يحتفظ بهدوئه رغم نشاطه الملحوظ، لنصل إلى جادات هادئة ساكنة لا ينغص سكّانها ضجيج. كانت مظاهر الدعة تلوح على وجوه السابلة القليلي العدد. في تلك الفترة إذاً، لم أكن أدرك أن الطابع المتوسّطي آخذٌ بالتداعي والتراجع وإذا كانت «المتوسّطية» قد شهدت إندفاعة إضافية في الستينات فإن تلك الفترة هي التي كانت تتجمّع فيها العناصر التي ستغلب النمط المتوسّطي. انحطّ الأمر بتلك الفنادق التي كانت علامات ذلك الزمن فغابت

عنها أبّهتها لتدخل في شيخوخة لا تنتهي إلّا بإزالة بناء وإحلال غيره مكانه. وتحوّلت بعض المقاهي التي شهدت تاريخ النصف الأول من القرن إلى كاراجات ومستودعات وصالات لألعاب السبق والقمار...

في تلك الساحة التي كافحت للحفاظ على أناقتها وصرامتها كوسط للمدينة، أخذ يستقر الباعة المتجوّلون من كل ضرب واكتظّت الأرصفة بالمتسكّعين الذين يسيرون على غير هدف، إكتظاظاً لا يفصح عن هوية محدّدة لا يشبهه سوى اكتظاظ المدن الآسيوية التي تغيب تحت وطأتها السمات المتوسّطية.

الأيام التي مضت

اليوم الأول من رمضان هو أشدّ أيامه تأثيراً وانطباعاً بالأجواء التي يفرضها شهر الصوم. نمضي إلى مدرستنا في الصباح الأول فنشعر كأننا انتقلنا إلى مدينة أخرى أو أننا انتقلنا إلى زمن آخر، زمن سابق يعود ليتكرّر في الحاضر. وفوق ذلك يمنحنا قدوم شهر رمضان منعة نفتقدها في الأيام العادية. عدا عن كونه يغمرنا بفرح عميق.

تعود فرحتنا برمضان لأسباب عديدة: أولاً، فرحة إنتظار قدومه، ثم الجلبة التي يحدثها في أجواء المنزل، واختزال النهار المدرسي، ثم المشهد الذي تكتسبه المدينة برمّتها، وثمّة تفاصيل أخرى: الطبل في الليل والمدفع والحلويات الرمضانية، وأخيراً الملابس الجديدة بانتظار العيد.

يثبت رمضان عبر ضرب المدفع من القلعة. كنّا نبقى خارج المنزل في ساعات المساء الأولى بانتظار رؤية الهلال. لكن يحدث أن يتأخر إلى منتصف الليل، وحين يتأخّر إعلان بدء الصوم فإن تحضير طعام «السحور» قبل الفجر يتمّ على عجل ويصبح مهمّة عائلية شاملة نشارك فيها نحن الصغار في العائلة. لكن يحدث أن يتأجّل إثباته إلى اليوم التالي، عندها نذهب إلى جوار القلعة عند العصر، ونحن واثقون من أنهم سيطلقون المدافع مع الآذان، وعندها نشاهد بأم أعيننا كيفية حشو المدفع وإشعال الفتيل ثم الدوي الذي يتردّد في كافة الأرجاء.

كان رمضان في صباي الأول يصادف أيام الشتاء الباردة، لذا كان الخروج من الفراش في تلك الساعة من الليل مهمة شاقة. لم أكن

صائماً مواظباً في سنواتي المدرسية الأولى، إلّا أن القيام إلى مائدة السحور مهمّة قائمة بذاتها، لأنها مشاركة في طقس رمضاني رئيسي، ولأنها إعلان العزم على الصيام.

يبدو الشارع الذي أعبره في طريقي إلى المدرسة مقفراً هادئاً في اليوم الأول من رمضان. ثمّة تباطؤ في حركة المارّين القلائل. ثم أن شيئاً من التبدّل غير المُدرك يطرأ على الأمكنة التي كنتُ أعبرها في طريقي الصباحية إلى المدرسة. ثمّة تكاسل صباحي ملحوظ، ولأن موعد الإفطار لا يزال بعيداً، فإن الباعة يتأخرون في فتح محلاتهم ودكاكينهم أو في استحضار بضائعهم من لحوم وخضار. ثم أن «مقهى موسى» في طريقنا إلى المدرسة يفرغ نهائياً من الزبائن طيلة النهار ليستأنف حركة نشطة ومزدحمة بعد الإفطار. أما بائع الفول فإنه يقفل دكانه طيلة ساعات ما قبل الظهر ويحضر مواده للزبائن في فترة العصر.

في اليوم الرمضاني الأول، كنا نمضي إلى المدرسة متأخّرين عن المواعيد العادية، والحديث المدرسي يستغرقه الموضوع الرمضاني. وجميع الطلاب الصغار صائمون في تلك اللحظة المبكرة من النهار على الأقل، لذا تختفي ضوضاؤهم، فلا ألعاب عنيفة ولا ركض في طول الملعب وعرضه. وقد اختفى بائع المدرسة فمن يجرؤ على تناول شيء ولو كان فاطراً. كانت الحصص الدراسية تمضي سريعاً بسبب اختصار مقدار ربعها من الدقائق. ونهارنا المدرسي، الموزّع على فترتين، الذي ينتهي عند الرابعة مساءً في العادة، يُختصر إلى الثانية عشرة والنصف ظهراً. إن أشد ما كان يحبّبنا برمضان هو اختصار ساعات الدراسة.

الرمضانات الأولى التي عرفتها كانت شتائية، لهذا كانت النهارات قصيرة، محتملة الجوع. وليس هذا حاله حين يصادف حلوله صيفاً

بنهاراته الطويلة. ثم أن قضاء نصف الوقت في المدرسة يخفّف من وطأة الجوع، ويقطع الوقت بانتظار مدفع الإفطار عند مغيب الشمس. كنا نمضي وقت ما بعد الظهر متسكّعين في السوق الذي يضجّ بالحركة في ساعة «العصر» وبعده. إن صغار الصائمين يكثرون السؤال عن «الوقت» لحساب الدقائق المتبقّية قبل موعد الإفطار. لم يكن رمضان بالنسبة لنا في صبانا الأول ممارسة إيمانية فقط. بل كان أمراً محسوساً ومرئياً ومسموعاً. كان جواً كاملاً من المشاعر والأحاسيس والمشاهدات والطقوس والأصوات والأسماء والمصطلحات.

رمضان صنو السوق في النهارات. كنّا نتجوّل في طول السوق ذهاباً وإياباً، نتأمل الدكاكين التي تبيع الحلوى والتي تبيع الملابس والأحذية. كنّا نتأملها طويلاً إستعداداً لاختيار ملابس العيد. لكن تجوالنا في السوق كان يهدف إلى تمضية الدقائق الطويلة. كان سوق العطّارين هو الأحبّ إلينا. كان للعطّارين صلة عميقة بالتقوى الرمضانية وللمواد التي يبيعونها صلة أكيدة بشهر الصوم. كانت تجذب أنظارنا ثمار التفاح المغروسة بالقرنفل اليابس التي يساعد عطرها على احتمال الجوع.

لم نكن نحن فقط الذين ننجذب إلى السوق، ولكن المدينة التي اتّسعت وخرجت من نطاقها التقليدي وبنت حيزها الحديث، تنجذب برمّتها إلى الأسواق القديمة، كأن رمضان يوقظ حنيناً إلى الماضي. والواقع أن كل المساجد كانت في تلك المدة لا تزال في المدينة القديمة قبل أن تعمّر المساجد في الأحياء الحديثة. ولهذا، فإن رمضان الذي يوقظ التقوى في نفوس الصائمين كان يشدّهم إلى حيث يكتمل الصوم بشعائره الإيمانية وتقاليده.

والحق أن رمضان يخضع المدينة لتوقيته الصارم، فتتخلّى عن أوقاتها الدارجة. كنّا نستشعر ذلك من خلال الدوام المدرسي، ومن

خلال تبدّل أوقات النوم والنهوض وأوقات الطعام. نستيقظ على قرعات طبل «المسحّر» قبل الفجر بساعة أو ساعتين، لنعود ونستسلم لهدأة النوم بعد صلاة الفجر، مما يؤخّر إستيقاظ المدينة. أما حركة السوق فتبدأ بطيئة متكاسلة وصامتة في الصباح، ليعلو ضجيجها بعد الظهر. لكن الضجيج سرعان ما يتلاشى في الفترة القصيرة التي تسبق مدفع الإفطار عند صلاة المغرب. ويلفّ السكون الشامل المدينة، لا صوت ولا حركة في دقائق إنتظار مدفع الإفطار أو صوت المؤذّن. وما من عابر سبيل في شوارع مقفرة يلفّها الصمت والإنتظار.

على العكس من ذلك، فإن دبيب الحركة كان يسمع بعد ساعة من موعد الإفطار. كانت أمسيات رمضان، التي يسمح لنا فيها بالخروج من المنزل إلى الحارة، حيث المقاهي الشعبية تمتلىء بروّادها، والعائلات تمضي إلى زيارات ليلية، والصبية يعوّضون كسل النهار بنشاط مسائي.

كان رمضان هو الممارسة الإيمانية الأولى، فالصوم يستدعي الصلاة في المسجد والإستماع إلى الدروس الدينية. وتأخذ التجربة الإيمانية طابع التجريب والتدريب. وفي سن السادسة أو السابعة كنا نكتفي بصوم نصف نهار على سبيل إكتساب العادة. وقد تعلّمنا أول مواد الفقه لكثرة ما طرحنا من أسئلة عن المسموح والممنوع وأحكام الصوم وأحكام الصلاة.

في الأيام الأخيرة من رمضان، كانت دراستنا تتباطأ حتى تكاد تتوقّف، فنشاط السوق يطغى على ما عداه، والجميع مشغول باقتراب موعد العيد، الأهل والباعة والأولاد بشكل خاص. نتجوّل في الأسواق في أوقات بعض الظهر. وفي المساء نتبع موكب «الوداع» الذي ينتقل من منزل إلى آخر. والحق أن حماسنا يزداد مع اقتراب موعد العيد خصوصاً حين يكون إستعدادنا قد تمّ لاستقباله.

في أول أيام العيد نستيقظ أبكر ما يمكننا أن نفعل لنلبس ثيابنا الجديدة. وننطلق للاستفادة من كل لحظات الأيام الثلاثة. كان العيد يبدأ في المسجد بالنسبة للرجال، الذين يصطحبون عائلاتهم في زيارات للأهل، أما الصبية فكانوا يستفيدون من رفع الرقابة التي يسمح بها العيد فينطلقون إلى ساحات العيد المتعدّدة. في حارتنا كانت تنصب المراجيح في الساحة حيث يتوافد عشرات الباعة ليقيموا في الأيام الثلاثة مهرجاناً متواصلاً. لكن في ساحة المدينة الحديثة كان ثمّة عيد آخر، حيث يتوافد أبناء المدينة من جميع حاراتها وتمتلىء الساحة العامة بضجيجهم ومرحهم. في تلك الأيام كانت السينما قد دخلت كطقس إضافي من طقوس العيد، فكنا نكتشف عالمها في مشاهدة أفلام متلاحقة في صالات محتشدة بأولاد العيد.

غالباً ما يساورنا شعور بالكآبة لمضي الوقت سريعاً. كانت أمسية اليوم الأخير من العيد لا تخلو من حزن عميق. لقد فات رمضان ومعه العيد. فنسعى إلى تمديد العيد يوماً آخر بغيابنا عن المدرسة غياباً نُسامح عليه، لكن ذلك لم يكن ليعيد الأيام التي مضت.

المسلم والمسيحي

الحارة هي عالمنا نحن الصبية. فلا نغادرها إلّا في المناسبات. وهي ميداننا الرحب حيث نلهو عند الجبل القريب أو عند حائط المقبرة. وفوق ذلك فهي عالمنا الرمزي. كنّا نقيم في إحدى أطراف المدينة، ولكن على إتصال بوسطها القديم. لهذا بقيت معرفتي بسيطة بأطراف المدينة الأخرى. ولوقت، استغرق صباي الأول كان انتمائي إلى الحارة يسبق كل إنتماء آخر، إلى حد كنتُ أعتبر فيه أولئك الذين هم من جهات المدينة الأخرى بمثابة غرباء عن حارتنا. لحسن الحظ، أنني في الوقت الذي أخذت فيه أدرك الأمور والأشياء كانت الحارة، كسائر المدينة، تفك عزلتها تدريجياً. ومع ذلك فإن الإنتماء إلى الحارة لا ينطفىء فيستمر في النفس جزء منه، هو جزء من تكويني الأول.

إنه مكان معزول، ومع ذلك فإنه يتّصل بشكل حثيث بكل حارات المدينة الأخرى بدون إنقطاع. لا أبواب فاصلة تقفل عند المساء، ومع ذلك فإن بعض أحياء المدينة القديمة بقي يحمل أسماء بوّابات ضاعت معالمها.

في حارتنا القديمة التي كانت مصبوغة بتقاليد قرنين أو ثلاثة قرون من الزمن، كان ثمّة عائلة مسيحية تقيم في إحدى الدور القديمة، مثل غالبية الدور الأخرى. أذكر أن ثمة فتيات يخطن الملابس مع والدتهن المتوسّطة العمر. كانت إيڤون، إحدى فتيات المنزل، ممتلئة، أما الأخريات فلم أحفظ من ملامحهن أو أسمائهن شيئاً.

لم تكن إقامة عائلة إيڤون، مع عائلة مسيحية أخرى أو عائلتين في حارتنا، أمراً مستغرباً بقدر ما كانت تكمل مشهد الحارة في مخيّلتي فثمّة أمور أخرى كانت تثير فضولي أو تثير قلقي، مثل عائلة التركي وبناته الأنيقات، أو الشيخ المغربي الذي حجر على حريمه نهائياً. كانت الحارة، بالرغم مما توحيه من تجانس أهلها، تشتمل على تنوّع بشري، فثمّة أشخاص وعائلات من أماكن مختلفة وحّدتهم الحارة وأعطت لكل منهم مكانه الثابت. وثمّة، في هذا العالم المنطوي على ذاته، أشخاص لا يمكن إخراجهم من صورهم التي إستقرّوا عليها. كأن الأمور مرسومة بعناية، وكأن كل واحد يحتلّ مكانه الذي لا يتغيّر.

كانت المدرسة بمثابة الخروج الأول من عالم الحارة الضيّق. بالرغم من أن مدرستي الأولى كانت تقوم في هذه الجهة من المدينة التي هي جهتنا، ولهذا كانت إمتداداً للعالم الذي أنتمي إليه. وكان بإمكاني أن أصل إليها إذا اتّبعت خطاً شبه مستقيم عبر سوق المدينة القديمة دون أن أعبر طريقاً أو شارعاً، ثم أنه سوق طويل لا تدخله السيارات. والمسافة التي أعبرها بصحبة أخي الذي يكبرني، لم تكن تشكّل سوى ربع إمتداد السوق. فلو تابعت المسير لأمكنني الوصول إلى الطرف الآخر من المدينة وتجاوزت النهر، الأمر الذي لم أفعله بمفردي قط. وكان الناس في السوق الذي أعبره أربع مرات ذهاباً وإياباً كل يوم يشكّلون أهل المدينة، وكان أبناء هؤلاء هم زملاء المدرسة. والأساتذة هم من ذات الجبلة والطينة، نستطيع أن نتبعهم عند الإنصراف لنستدلّ على منازلهم القريبة. وأهلنا يعرفونهم. إلّا أن قسوتهم المنهجية كانت تبدو من زمن آخر أو عالم آخر. فقد كان ثمّة شيء من الماضي العثماني في ملامح بعض الأساتذة، إلّا أن أغلبهم قد تلقوا تعليمهم في مدارس الإنتداب حيث تعلّموا شيئاً عن الإنضباط

والواجب. وكل خروج عن أحد الأمرين، أو الأمرين معاً يستحقّ العقاب الشديد.

ثمّة في هذا الوسط المدرسي الأول بالنسبة لي، أستاذ ما كان من حيّنا ولا من مدينتنا، وفوق ذلك كان مسيحياً. وبهذه الصفة تقريباً كان أستاذاً للغة الفرنسية في أعلى صف في المدرسة الذي هو صف الشهادة التكميلية. كان طلّاب الصفوف العليا يلبسون سترات قاتمة، وأستاذهم للفرنسية كان يلبس سترة رمادية وأخرى كحلية قاتمة. أما نحن طلبة الصفوف الأولى الإبتدائية، فكنا نرتدي مراييل سوداء، مثل سائر طلبة المدارس الأخرى في المدينة.

حدث بعد عام ستّين أن جاء أساتذة أكثر شباباً إلى مدرستنا، حين فتح باب التوظيف في دورات لاختيار أساتذة للتعليم الإبتدائي أو التكميلي، أساتذة في وسط العقد الثالث من العمر، أقلّ «ظلماً»، أي أقلّ قسوة تبعاً للتعبير الشائع بين الطلاب، من الأساتذة الأكبر عمراً الذين اعتدنا على قسوتهم. من بين الجدد ثلاثة مسيحيين، لفت أحدهم إنتباهنا لأنه يكتفي بارتداء قميص ملوّن بدل السترة القائمة. وكان أقرب إلى الطلاب في العمر والسلوك منه إلى الأساتذة. وكان ثمّة آخر يرتدي على الدوام سترة سوداء، ولقميصه الأبيض ياقة غريبة لم نر مثلها من قبل، علمنا على نحو غامض، بعد إستفسارات، أنه متديّن مسيحي. كان صاحب الياقة الغريبة شديد الطيبة، لكنه أصيب بالذهول حين برز في الساعة الثانية والنصف صوت المؤذن في جامع «الطحام» المجاور للمدرسة، فنهض جميع التلامذة في الصف نهضة واحدة، ورفعوا سبابتهم وأشهدوا بأصوات نصف منخفضة. كانت تلك طريقتنا لنعلن للأستاذ هويته المغايرة. وكان على الأساتذة المسيحيين القلائل أن يقبلوا بذلك عند صلاة الظهر في فترة الدراسة الصباحية الأولى، أو عند صلاة العصر في فترة الدراسة الثانية. ولكن

تصرّفاً مماثلاً ما كان ليجرؤ عليه الطلّاب لو كان الأستاذ في القاعة من أبناء ملّتهم وحيّهم.

صودف أنني انتقلت في الصف الرابع الإبتدائي إلى مدرسة أخرى، تقع في وسط المدينة الحديثة، قريبة من المنزل الذي انتقلت إليه العائلة. كان انتقالاً في الزمن أكثر مما هو تبديل للمكان. كانت حارتنا القديمة ضاربة في التاريخ العثماني. أما حارتنا الجديدة فهي تكوين إنتدابي اكتملت صورتها المؤقتة في الخمسينات. فاستقبلت سكّاناً من الأرياف القريبة فغلب عليها سكن المسيحيين حتى مطلع الستينات. وتكوّن لدي شعور أول أننا نسكن في حيّ مسيحي، كأنه امتداد لحارة النصارى، إلّا أنه لم يكن كذلك لأنه كان من بين تلك الأحياء المختلطة، التي عبرت عن اختلاط بلغ أوجّه في تلك الفترة. إختلاط بين المسيحيين والمسلمين، بين أهل الأرياف وأهل المدينة، بل تعدّى الأمر ذلك، كان جارنا في الشقّة المقابلة مسيحي من أصل فلسطيني، أما بائع البقالة الوحيد في الحارة آنذاك فكان يونانياً يسكن في البناية المقابلة لبنايتنا. وثمّة من الجهة الأخرى عائلة تدّعي أنها فرنسية، وثمّة أيضاً عائلات من سوريا، أما أغلب السكّان المسيحيين، فهم من أصل ريفي مجاور للمدينة.

حدث بعد مرور وقت تبادل زيارات نسائية محدود. وكانت الوالدة تعتبر أن جيراننا هم الذين تركناهم في حارتنا السابقة. واعتقدنا أننا نقيم في وسط مؤقت. فتفاديت أن أعقد صداقات مع صبيان الحارة. ومع ذلك كنتُ أراقب الفتيات، واتكلم عبر الشرفة مع بنات اليوناني.

كانت السمات التي يحملها حيّنا الجديد، وكنّا في مطلع الستينات، ستصير سمات من الماضي بدورها. ومع ذلك، وقبل أن تطرأ التبدّلات اللاحقة، كنتُ أستكشف عالم الحي الذي انتقلنا إليه

وأراقبه مراقبة دقيقة. كان الحي، بالنسبة لي، مكاناً أنتربولوجياً. أمكنني مراقبة أهل الأرياف المسيحيّين وعاداتهم. واكتشفت نظام يوم الأحد، اليوم الذي نرى فيه الرجال قاعدين في منازلهم يلبسون ملابسهم الجديدة، أو يشاركون في الشواء عند الظهر. واكتشفت أعياد الميلاد ورأس السنة والفصح. كأنها لم تكن موجودة من قبل على الأطلاق، وراقبت جنازاتهم وأفراحهم، جنازات تبعث في نفسي الرهبة لإغراقها في السواد والطقوس ولمشهد الكهنة يتقدّمون الموكب، ثم أنها جنازات مختلطة من رجال ونساء وصبية يحملون الأكاليل. ولكن أشد ما يلفت الإنتباه في هذا الوسط هو ظهور المرأة؛ نساء سافرات يتحدّثن مع الرجال خارج منازلهن دون حرج. ثم إن السيدة التي تسكن في المنزل الأرضي قرب دكان اليوناني، كانت تشرب القهوة في الصباح أو في أول المساء في شبه الحديقة التي تتقدّم منزلها مع بناتها الناصعات بياضاً، وتتحدّث مع الجيران العابرين وتدعوهم إلى شرب القهوة، كنتُ أتساءل متعجّباً عن مغزى هذا الطقس اليومي الذي ينقل السيدة إلى خارج جدران منزلها. لم تكن ثمّة أسرار بل إلفة زائدة بين جيران مثل الأشقاء والأخوة، لكننا لم ننخرط أبداً في مثل هذه الألفة التي كان فيها شيء من مزاج الريف.

كانت فترة إختلاط وسعادة، فالمدرسة التي انتقلت إليها كانت أقلّ رهبة من تلك التي غادرتها، ثم أنها كانت مكاناً مختلطاً، ولأول مرة صار لي في الصف أصدقاء من المسيحيّين، فضلاً عن الأساتذة الذين يدرسوننا الجغرافيا والفرنسية والأشياء (الطبيعيّات). لكنني لم أمكث فيها سوى سنتين. انتقلت إلى المدرسة الثانوية بعد شهادة السرتفيكا (الإبتدائية). كانت الثانوية الرسمية الوحيدة في المدينة آنذاك. مدرسة تضاهي أفضل المدارس، بأساتذتها ومبناها الجديد وملاعبها

الواسعة. وفي سنتي الأولى فيها كان إلى جانبي في المقعد زميل مسيحي. وكان ربع طلاب الصف من المسيحيّين. وفي السنة التالية ازداد عدد الطلاب المسيحيّين في صفّنا والصفوف الأخرى، يأتون من مدارس خاصة وإرساليات، فكانوا يجيدون الفرنسية أكثر منا. كان جيلنا بالمقارنة مع الأجيال التي سبقتنا، قد حظي بهذا الإختلاط الذي بلغ مداه آنذاك. ثمّة كاثوليكي من زحلة ودرزي من الشوف وشيعي، فضلاً عن الموارنة من الريف المجاور وأرثوذكس من وسط المدينة وأهلها. وقد تعجّب أستاذ الدين الموفد من مصر لخروج هذا العدد من الطلاب عند دخوله قاعة الدراسة لأول مرة.

مثّلت المدرسة الثانوية بالنسبة لي مكاناً إجتماعياً، فلا مجال للإستقصاءات الأنتربولوجية. ثمّة إختلافات بين الطلّاب، ولكنها طفيفة غير ذات بال. فكان ثمّة جهد، وخصوصاً من أولئك الذين ليسوا من أبناء المدينة، لإخفاء هوياتهم الأولية، وانتماءاتهم المناطقية ولكناتهم الخاصة. ثمّة لغة مشتركة تشقّ طريقها تتكوّن من مفردات وألفاظ مألوفة ومستخدمة من الجميع. كانت الأعياد الدينية عطلاً مدرسية، فيمارس الطالب ديانته وطقوسه في وسطه العائلي وليس في المحيط المدرسي. لا حوارات دينية أو لاهوتية. حدث اختلاط في الصداقات والإنخراط في الموجات التي إستهوت الشبيبة آنذاك. كان الطلّاب المسيحيّون في صفنا سبّاقين إلى تلبية نداءات الموضة والموسيقى الغربية. وكنا، بشكل عام، أكثر تحفّظاً. والحق أن القسمة لم تكن على أساس ديني، بل على أساس الإنخراط في النموذج المديني المشترك الآخذ في التكون، والإنخراط في «الموضى» الأكثر تجديداً. وأولئك الذين يحافظون على انتمائاتهم الأولية من مسلمين أو مسيحيّين كانوا عرضة لانتقاداتنا وسخريتنا.

في تجوالنا المثابر في أحياء المدينة وشوارعها، جعلنا من شارع

الكنائس الذي هو «حارة النصارى» القديمة ميدان تسكّعنا في ربيع الصف الثاني المتوّسط، كنا شلّة مختلطة من مسلمين ومسيحيّين، أبناء مدينة وأبناء ريف، ولم تكن تلك التصنيفات لتأخذ بالنا أو لتدخل وسط كلامنا. كانت حارة النصارى امتداداً حثيثاً لأكثر حارات المدينة أصالة وقدماً. وان تبّدلت معالمها في بعض أطرافها، وأقام المرسلون فيها منذ عقود مدارس وإرساليات، فإن طرفها الشرقي يندمج اندماجاً في مناخ لا يشوبه تفاوت أو اختلاف. الحق أن بضع كنائس تنتصب هنا بأبراجها المنوّعة الهندسة، ولكن سكن المسيحيّين لم يقتصر على الحارة التي تحمل اسمهم. ومنذ بضعة قرون سبقت تجوالنا وبدء إدراكنا، كان الانتماء إلى المدينة جزء من هوية يتمسك بها الكائن وترافقه أينما حلّ بغضّ النظر عن دينه، وانبثّ أبناء المدينة في مجمل حاراتها. وإذ غلب سكن المسيحيين في الحارة التي تحمل اسمهم، فقد سكنوا في الحجارين والنوري والتربيعة وصولاً إلى سويقة الخيل وكانت محال تجارهم تقوم جنباً إلى جنب محال التجّار الآخرين من سكان المدينة. وكان وجهاؤهم وجهاء المدينة وليس الملة فحسب.

لم نكن بحاجة إلى قراءة التاريخ حتى نختار أصدقاءنا. فالأصدقاء امتداد لأوقاتنا في تلك الآونة، وأجزاء من الأمكنة التي لا ننفصل عنها.

الجمعة والأحد

في صباي الأول، حين كنت لا أزال في صفوف المدرسة الأولى، كان عصر يوم الخميس اسعد فترات أيام الأسبوع، لأن ساعة الإنصراف عند الرابعة هي لحظة تنتهي معها أربعة أيام من الدراسة، فنستعد لاستقبال يوم العطلة الذي هو يوم الجمعة. ونستعد لاستقبال نهاية أسبوع مدرسي، ثم نعود يوم السبت إلى المدرسة، لننتظر يوم عطلة آخر هو الأحد. كذا كان نظامنا المدرسي الأسبوعي، يبدأ متثاقلاً بطيئاً ثم يسرع المضي في أواخره. ثم أن نظامنا المدرسي اليومي يبدأ في الثامنة إلّا عشر دقائق. بل في السادسة صباحاً حين نستيقظ لننهي أحياناً آخر فروضنا المتأخرة أو نراجع دروسنا، ثم نلبس مرايلنا ونحمل حقائبنا ونمضيْ عبر السوق إلى المدرسة. كانت المدة من الثامنة إلّا عشر دقائق إلى الثانية عشرة والثلث مقسمة إلى أربع حصص دراسية تتخلّلها نصف ساعة من الراحة (الفرصة)، من العاشرة إلّا عشر دقائق حتى العاشرة والثلث نتناول خلالها ما تيسّر من السندويشات أو نشتري ما تيسّر من بائع المدرسة أو نلعب أو نراجع الدروس. وأنا شخصياً لم أكن أتناول شيئاً خلال فرصة الساعة العاشرة وكنتُ أعجبُ من الزملاء الذي يتناولون فطورهم في المدرسة. لأننا نذهب بعد جرس الثانية عشرة والثلث إلى منازلنا لتناول الغداء، ونعود لنمضي ساعتين دراسيتين بين الثانية والرابعة. كان نظاماً مدرسياً بطيئاً ومضجراً. ويزيده الأساتذة والنظّار، الذين يمضون الوقت أو بعضه في تعنيف الطلّاب، كآبة.

كان الزمن يمضي بطيئاً وصارماً، فقد كنا نلبس مراييل سوداء فاحمة، ذات أزرار بيضاء. ونحمل حقائب جلدية جافة لا يحمل وجهاها أي تزيين. لا أوتوكارات توصل الطلّاب إلى المدرسة، ولا آباء أو أمهات ينتظرون خروج أولادهم عند باب المدرسة، فقد كان زمناً آمناً على أي حال، هادئاً، لا يخشى الأهالي من إرسال أولادهم إلى المدرسة غير مصحوبين. فقد كان الطلّاب يعرفون أصحاب الدكاكين في السوق، التي يعبرونها في طريقهم إلى المدرسة، من خلال معرفة آبائهم لهم. فلا توحي طريق المدرسة بأية وحشة أو خشية.

كان الخروج من باب المدرسة صاخباً، ثلاثمائة إلى أربعمائة طالب يخرجون دفعة واحدة، تتراوح أعمارهم بين السادسة والخامسة عشرة، لكن من كنا نعتبرهم كبار السن، أي طلاب الصفوف العليا، كانوا قلّة نسبة إلى عدد الصبيان في الصفوف الأولى. كان خروجهم بعد ظهر الخميس أشدّ صخباً وضجيجاً، علامة على غبطتهم الداخلية التي لا يكتمون إظهارها. كانت المدارس منفصلة، للصبيان مدارسهم كما للبنات، وكان شقاء عالم الصبيان وطيشهم لا يحتمل دخول البنات إلى عالمهم، والحق أنه ما كان للبنات في صبانا الأول، أي مكان، لا في لهونا ولا دراستنا ولا أحاديثنا أو أحلامنا. كان الطيش مع اللهو سيدي أوقاتنا التي تتخلّلها صرامة الأساتذة التي تنغص عيشنا وتقلقنا.

في الرابعة من بعد ظهر يوم الخميس، نخرج من باب المدرسة الذي يقع عند أول (طلعة رفاعية) التي تقع في وسط السوق، بحيث كان بإمكاننا أن نتّجه في أحد الإتجاهين، إما جنوباً فنعود إلى منازلنا، أو شمالاً، بحيث ندخل في لجة السوق الذي تختلط فيه الدكاكين من كل صنف، من محلة الحتة إلى سوق العطّارين فالكندرجية

فالبازركان. وفي أيام الربيع، حين تبدأ النهارات في قضم أوقات المساء الأولى، كنا نجد متّسعاً من الوقت لنمضي صوب القلعة المطلّة على النهر، بحثاً عن «الزيزان» الملونة والحشرات المضيئة. لكن عادة ما كنتُ أتّجه متباطئاً صوب المنزل مروراً بجامعي «الطحام» و«المعلّق». جامع المعلّق الذي يعلو السوق فنمر تحت بنائه الفريد، حيث تقع بضعة دكاكين، بينها دكان «القندقجي» السمكري والد أحد زملاء صفنا.

كان بإمكاننا أن نلهو قبل العودة إلى المنزل، أو أن نتباطأ في سيرنا. وكنّا نفضل أن نرجع حقائبنا إلى المنزل، لنعود إلى الحارة فنلهو قبل المغيب. وكنا بطبيعة الحال نهمل دروسنا ووظائفنا (الفروض). ونتركها للغد، أو نسرع في إنجازها لنستمتع بيوم العطلة دون تنغيص الدروس والواجبات المدرسية.

لم أكن أحب المدرسة وفروضها ودروسها. ومع ذلك فإن خوفي من القصاص، كان يجبرني على تحصيل ما أمكن حتى أتفادى العقوبات... ومساء الخميس نتأخّر في السهر، لا تلفزيونات ولا برامج خاصة، فنواصل الثرثرة أخوة وأخوات حتى يغلبنا النوم. وعلى العكس من ذلك، كنا صبيحة يوم الجمعة نستقيظ أبكر من المعتاد، ربما لنستمتع بكل لحظات يوم العطلة. لكن على الأرجح فإن الجلبة المنزلية المبكرة هي التي كانت توقظنا. فبالنسبة للوالدة، كان الجمعة هو يوم عمل، ربما لأنها تريد أن تستفيد من مساعدة شقيقاتي لها في أعمال المنزل. كان يوم الجمعة إذاً يدمج العطلة بالعمل، مما يدفعنا إلى الذهاب صوب الحارة لنلهو مع أقراننا. لكن الحارة أو السوق القريب لم يكن كله لهواً، فكان يوم الجمعة يبتدىء بالعمل خلا طلاب المدارس الرسمية أمثالنا، وهذا ما كان يضفي ضجيجاً إضافياً على ضجيج الحارة والسوق.

في فترة الظهر، حين كنت في سن العاشرة أو قبلها بقليل، كنت أذهب بصحبة والدي إلى الصلاة. ولست أعلم لماذا كان يصطحبني وحدي من بين أخوتي إلى جامع الطحام القريب من المدرسة. لعله فعل ذلك معهم حين كانوا في عمري ليدربهم على ارتياد المساجد. كنت أسلك إذاً بصحبته الطريق الداخلية نفسها عبر السوق، التي أسلكها في كل الأيام أربع مرات ذهاباً وإياباً في طريقي إلى المدرسة لكن السير إلى جانب الوالد، ممسكاً بيدي، يمنحني ثقة وطمأنينة لم أكن أحسها في بقية الأيام الأخرى. كان يتوقّف مرات، خلال سيرنا صوب الجامع، ليصافح أو يتحدّث مع أحد أصحاب الدكاكين.

السلم التي توصلنا إلى الجامع، كانت تسمح لي بالنظر إلى السوق ودكاكينه التي يقع بعضها تحت الجامع مباشرة. كنت أجلس إلى جانب والدي، مسنداً ظهري إلى الحائط، بحيث يمكنني أن أتطلّع من النافذة إلى الدكاكين والباعة والمارّة في السوق. لكن أصوات السوق كانت تخفت وتختفي حين يرتفع الأذان ويبدأ الإمام بخطبته.

في العودة إلى المنزل يكون شيء من الهدوء قد لفّ الطريق عبر السوق. لكن الدكاكين لا تزال تستقبل الزبائن. آخر الزبائن قبل الإقفال، كان والدي الذي يتوقّف ليأخذ بعض الحاجات، وكان السوق يقفل خلفنا حتى صبيحة اليوم التالي.

بعد ظهر يوم الجمعة ليس كصبيحته، شيء من الكآبة والسأم يتسرّب إلى داخل المنزل، بل يلفّ أجواء الحارة. فكان علينا أن نبدأ بالتحضير ليوم المدرسة في الغد. وكان الأخ الأكبر سناً هو الذي يأخذ المبادرة لتذكيرنا بفروضنا ودروسنا.

في السنوات التالية لم يعد والدي يصطحبني إلى الجامع، كنت أفعل ذلك أحياناً من تلقاء نفسي مع بعض رفاق المدرسة، لكنني لم أعد إلى الجامع نفسه، بل تبعنا أحد أساتذتنا الذي كان خطيباً لجامع

التربيعة. وفي سنوات تالية أخرى كنا نذهب إلى الجامع الكبير لا لنصلي صلاة الظهر، ولكن لنتجمع، طلاب المدارس وبعض الحرفيين وأصحاب الدكاكين وبعض قادة الأحزاب المحليّين إستعداداً لانطلاق تظاهرة. والواقع أن عددنا كان يتفاوت تبعاً للمناسبة: وطنية، مطلبية، طالبية. لكن نحن طلاب المدارس الرسمية كنا مادة جميع المظاهرات التي كانت طقساً شبه أسبوعي؛ يتجمّع المتظاهرون يوم الجمعة في الفسحة الداخلية للجامع الكبير بانتظار إنتهاء الخطبة والصلاة، فتبدأ عند خروج المصلّين خطابات قادة الطلّاب والأحزاب، خطب حماسية ليست من نوع الخطبة التي انتهت لتوّها في البهو الداخلي.. في سنوات تالية أخرى كنت أشارك في تحضير التظاهرات الطالبية. كنا ننشغل قبل الظهر في تنظيم الأمور وجمع المشاركين، ثم نجتمع في الجامع الكبير، في فسحته الداخلية أو عند مدخله، حين يكون عددنا كبيراً. ومن هناك ننطلق في الأسواق الداخلية لنحصد مزيداً من المشاركين من المارّة أو من أصحاب الدكاكين الذين أقفلوا دكاكينهم، فيرافقنا بعضهم مسافات متفاوتة، أو يمضون معنا إلى نهاية التظاهرة التي تخرج من السوق إلى المدينة الحديثة ثم إلى ساحتها لتتوجه من هناك إلى السرايا لعرض المطالب، مهما كان نوعها ومناسبتها. كنا نعود بعد ذلك إلى منازلنا، ولكن حينما تشتد حماستنا ونضالنا، ما كنا نعود إلى منازلنا دائماً، بل كنا نمضي إلى حيث نجتمع لنقوّم إنتصاراتنا الصغيرة.

عادة ما كنا نلتقي بعد ظهر يوم الجمعة في «مقهى التلّ العالي»، وهو كناية عن روضة صغيرة بأشجار باسقة، تقع على هضبة ساكنة وسط العمران الذي يشكّل المدينة الحديثة التي أخذت بالتكوّن في أواخر العهد العثماني وتكاملت في عهد الإنتداب. كان هذا المقهى قد شهد عصوراً متتالية، ويرتاده رجال من أجيال متعاقبة. يأتون

لأغراض متقاربة: لعب الورق وتدخين النراجيل وشرب القهوة. وكان أنصار وأتباع الأحزاب يأخذون مواقع لهم داخل هذا المقهى الفسيح. كان المقهى في تلك الآونة المقر شبه الرسمي للجماعة التي صرت جزءاً منها، كنا نخلط كلام السياسة بلعب الورق وبالدراسة أحياناً، وخصوصاً في الأيام التي تسبق الإمتحانات، فقد كان المقهى ذاته مكاناً مثالياً للطلاب لتحضير إمتحاناتهم.

كبرنا في ايام الجمعة. لم يعد يوم عطلة ولهو وسأم، بل صار يوم نضال واجتماعات. لم نعد ننصاع للتنبيهات العائلية، أو نعطي اهتماماً لدروسنا حين بلغنا الصفوف الثانوية بعد ١٩٦٧.

في تلك الفترة المبكرة من الصبا الأول، حين كنت أخرج من المنزل مبكراً إلى الحارة صبيحة يوم الجمعة، وحين كنت أذهب برفقة والدي إلى الجامع لم يكن يوم الأحد موجوداً، أو أن شيئاً قليلاً من الذكريات ظل في رأسي عن الآحاد. من الأرجح أننا كنا نمضي الوقت بين الحارة الساكنة والمنزل، حيث نقطع الوقت البطيء بمراجعة دروس اليوم التالي. وفي بعض الآحاد كان يصطحبني والدي مع أخي الذي يكبرني مباشرة، إلى دكّان الحلاق. كان الحلاّقون يفتحون دكاكينهم أيام الآحاد ويقفلونها أيام الإثنين.. لكن دكاكين السوق الأخرى كانت هي الأخرى لا تأبه بعطلة يوم الأحد.

إكتشفت يوم الأحد فجأة، بعد سن العاشرة، حين انتقلنا إلى حي آخر، يختلط سكانه المسيحيون بسكانه المسلمين. في حارتنا القديمة، قبل عام ١٩٦٠، كان يوم الأحد هو يوم عمل مثل سائر الأيام الأخرى عدا عطلة الأولاد، وفي انتقالنا إلى حي آخر، واصلت والدتي عاداتها، فكانت تعتبر الأحد يوماً عادياً آخر، فتبدأ صباحها بأعمال المنزل كالمعتاد، غير آبهة بما يكتنف الحي من سكون في الصباح. لكن يوم الأحد أخذ يتسرّب إلى حياتنا المنزلية تدريجياً، في

الوقت الذي تسرّب فيه إلى حياة المدينة وسلوكها.

كان حيّنا الجديد يستيقظ متأخراً بطيئاً صبيحة يوم الأحد. والدكان الوحيد في الحي الذي يملكه اليوناني، يبقى مقفلاً طيلة ذلك اليوم، أما اليوناني نفسه فكان يلبس بدلته الكحلية ويمضي إلى الكنيسة مع بناته. كنت أتأمّل في طقوس الأحد، التي هي أشبه بعيد. لكننا لم نكن نشارك في هذه الطقوس، كان الأحد بالنسبة لنا في المنزل مناسبة لمراجعة الدروس وتحضيرها.. في سنوات تالية وسط الستينات، خصصت مناسبة الأحد للذهاب إلى السينما في الحفلة الصباحية. كنا نلتقي عند باب السينما عند العاشرة لنعود ظهراً إلى المنزل. كان بعد ظهره مشوباً بالسأم والكآبة إستعداداً لأيام دراسة طويلة.

أخذ يوم الأحد يتسرب إلى حياتنا وأخذ يطبع مزاج المدينة كيوم عطلة أسبوعي. كانت رحلاتنا المدرسية تنظّم في الآحاد، وكذلك الإحتفالات الرسمية وتبعت الدكاكين المؤسسات في الإقفال يوم الأحد. وعمدت دور السينما إلى برمجة الأفلام إبتداءً من الأحد. واكتسب كل ذلك معاني ضمنية وأخرى ظاهرة. بقي يوم الجمعة مشدوداً إلى المدينة القديمة إلى السوق والمسجد، بينما صارت المدينة الحديثة مسرح يوم الأحد.

لا معنى للأوقات خارج المكان. تلك الأوقات التي تتموضع في أمكنة، كأن الوقت يسيل في الشوارع والأسواق ويتسرب إلى داخل المنازل ويلونها بألوانه، أو يرخي ظله فوقها. كان يوم الجمعة الصباحي ينتعش في السوق، فالكل يهرع إليه، ومع ذلك لا خضار في يوم الجمعة ولا لحوم. لكن السوق نفسه، والمساجد تحف به، قبل أن يُبنى بعضها خارجه، كان يشهد حركة قبل الظهر ليفرغ بعد الظهر، فكانت العائلات تمضي في نزهات أو زيارات. إرتبط الأحد بأماكن أخرى، حين أخذ يتمركز حول ساحة المدينة الحديثة التي يدبّ فيها

نشاط صباحي ومسائي، كانت المدينة الحديثة تحتضن دور السينما والمقاهي، ومحلات السندويش والمصورين الأرمن الذين ينتظرون زبائنهم قبالة المبنى العثماني للسرايا القديمة، أي كل ما يساعد على تمضية يوم عطلة الأحد. يحدث إنتقال مؤقت، فصبية الأحياء الداخلية وشبابها يخرجون إلى المدينة الحديثة بحثاً عن متع صغيرة، فتصبح شوارع المدينة الحديثة خاصّتهم بعد ظهر يوم الأحد. ولهذا السبب تقريباً فإن رواد دور السينما ورواد المدينة يخلونها لزوار يوم الأحد المؤقتين، لتعود الأمور إلى الإنتظام في اليوم التالي.

كانت الأوقات والأيام عرضة لاكتساب معانٍ جديدة، كأن الجمعة هو يوم العطلة الأهلي، والأحد هو يوم العطلة الرسمي. فمدينتنا لم تنخرط في يوم الأحد إلّا بعد إنخراطها في نوع المجتمع الذي خلقته الدولة.

ينطبع يوم الجمعة في ذهني بمعان متناقضة، العمل والصلاة واللهو في آن معاً. إنه تعاقب لنشاطات مختلفة ومختلطة، على عكس يوم الأحد الذي يأخذ معنى وحيداً يرتبط بالراحة والعطلة. إننا إزاء نظامين، لكل منهما خاصّيته التي تحتضن، إلى جانب الحاضر، موروثات من الماضي.

المدينة والدولة

حين إطلالتنا الأولى على الوعي، كانت «الحزبية» قد تسرّبت إلى محيطنا الأهلي، ومع ذلك لم تكن شيئاً مألوفاً. ثمّة في ذلك الوقت تناقض عميق، كون التحزّب مدعاة للفخر، من جهة، وأشبه بمعصية، من جهة أخرى.

وكانت الصورة الأولى للحزبي القريب تمتزج بالعطف؛ يقوم بأعمال يستهولها الآخرون، ولهذا السبب يتعرّض للمحنة التي تمنحه حالة من التضحية، كالسجن الذي تعرّض له أخي في أول أيام الثورة، إذ ضُبط من قبل حاجز للجيش يحمل المنشورات، فانتظرنا طيلة ثلاثة أشهر خروجه. لكن المشهد الآخر مناقض تماماً، إذ أحرق أهل الحي منزل الحزبي الذي اعتبروه بمثابة عدو لهم. كان مشهداً فظيعاً وجارحاً في صميم الذاكرة؛ أخرج الرجال والصبية أثاث المنزل إلى فسحة خارجية وصبوا فوقها نفطاً وأخذت تحترق تحت أبصار الأهالي الصامتين. فلم يكن للتعاطف أي مكان.

وعلى العموم، فإن التحزّب لم يكن مقبولاً في المحيط الأسري الضيّق أو في المحيط الأهلي الأوسع. كان التحزّب بمثابة عاهة ينبغي عدم ذكرها، أو نقص أو عيب ينبغي ستره، أو مصيبة حلّت ولا يمكن ردّها. والأمر لم يكن كذلك بالنسبة للحزبيين أنفسهم الذين ربما تباهوا بانتمائهم الحزبي، بالعقيدة التي اعتنقوها، وهم يشفقون على العامة من غير الحزبيين لأنهم لم يكتشفوا الحقيقة التي انقشعت لهم. ويضيقون ذرعاً بمن يجادلهم ببديهياتهم، ويواسون أنفسهم بأنهم

اكتشفوا ما لم يكتشفه سواهم وإنهم المنتصرون في غاية الأمر.

والحق أن الحزبيين ما كانوا كثيرين عدداً، كانوا أفراداً قلائل في هذا الحزب أو ذاك، ولكنهم كانوا فاعلين ونشيطين، يثيرون الإعجاب وكذلك الشك، ومشاعر الشك والريبة هي الأقوى على أي حال. لهذا فإن الحزبي ذات ينبغي تجنّبها وموضوع يجدر عدم الخوض فيه.

والإنطباع الأول أن التحزّب يقطع ما بين الآباء والأبناء. كان الآباء على دين وإيمان، وكان الأبناء الحزبيون على عقيدة حزبية ليس فيها من دين الآباء شيء. إذاً ثمّة قدر من العقوق وقدر من البدعة من جهة، وثمّة، من جهة أخرى، ثورة جيل على آخر. يخرج الحزبي من عائلته وعشيرته ودينه. وتغلب عليه صفته الحزبية حتى تصبح لقباً له، فيعرف في محيطه باسم: الشيوعي أو القومي أو البعثي. فلا يعود إبناً لهذه العائلة ولا منتمياً لهذا الدين. هكذا كانت الحزبية في زمنها المثالي. في بداياتها الأولى مزّقت الحزبية الروابط الأسرية، قطعت بين الأب وابنه، وخلقت البغضاء بين الأخوة في العائلة الواحدة. فقد أصبحت الأخوة الحزبية تتفوّق على الأخوة الطبيعية وصارت بديلاً عنها.

لكن الحزبية كانت فوق ذلك خطراً، بسبب العداء المتبادل بين الحزبيين و«الدولة». كانت الدولة تطارد الحزبيين في أوقات الأزمات ولا يملك الأهل حمايتهم أو الزود عنهم، لكن التعاطف الأهلي كان يزداد مع الحزبية العروبية الناهضة في وسط الخمسينات، وحين أزفّ وقت المواجهة بين «شعب» المدينة والدولة، كان الحزبيون حاضرين، حملوا السلاح وقادوا طرفاً من الثورة.

كنت في سنتي المدرسية الأولى، حين قامت في أيار ١٩٥٨ الثورة. أضربت المدارس وسار طلّابها في الشوارع، وانضم إليهم

محازبون وشباب الأحياء، وجرى تحطيم بعض المحال وإحراق بعضها الآخر، فنزل الجيش إلى الشوارع، إلى المناطق الحديثة من المدينة، وسدّ منافذها، فحُصرنا في الأحياء القديمة التي صارت كلا واحداً، فإنشطرت المدينة إلى شطرين وأقيمت المتاريس لتحمي الأهالي عند مرورهم في الشوارع الداخلية من رصاص القنّاصة، وانتشر السلاح في أيدي الحزبيين، أغلبهم من الطلّاب في سنوات التخرّج بالإضافة إلى شباب الأحياء والحرفيين، رشاشات من بينها «البور سعيد» الذي يحيي ذكرى العدوان الثلاثي على مصر. فتشكّلت «المقاومة الشعبية»، وخلال ثلاثة أشهر من الثورة والحصار كان المسلّحون هم سادة الموقف في الأحياء الداخلية. لم يخلُ الأمر من مُثل حملها الحزبيون من «الثوار»، لكن الثورة تلك أحيت تقاليد «القبضايات» التي كادت المدينة أن تنساها. كان القبضايات أعداء تقليدين للدولة ولكل سلطة. وفي أزمان سابقة كانوا يبسطون نفوذهم الصغير في الأحياء الداخلية ويعتاشون من «الخوة» والتهريب وقد جاءت الثورة لتنعش ذاكرتهم وأنماط عيشهم لبرهة من الزمن. وحشروا أنفسهم في شعارات الثورة وأغراضها.

حبسنا في الأحياء الداخلية، ونحن الصغار حُرمنا من التجوال لتعذّره وامتناعه. فاقتصرت أوقاتنا على اللهو داخل المنزل أو في جواره فصنعنا أسلحتنا الخشبية التي انتشرت في أيدي الصبية وفاقت أعدادها عدد قطع السلاح الفعلية، وجعلنا من حبّات الليمون قنابل يدوية، وتفنّن بعض الصبية في إتقان صنع الأسلحة الخشبية صورة وصوتاً ولوناً، فخلبوا لبنا. كانت أيام الثورة أيام صيف مما زاد في ضجرنا، وزادت الليالي الحارة الطويلة ـ التي لم تخلُ من تراشق بالأسلحة الحيّة ـ من ضجرنا وخوفنا.

وكان لمدينتنا أسبابها للثورة، فقد جرّبت نزالاً أخيراً مع الدولة،

ولم يكن آنذاك قد مضى قديم عهد على إرتضاء أهل المدينة أمر إنتسابهم إلى الدولة التي ناصبوها العداء زمن الإنتداب وخاب ظنّهم بها عهد الإستقلال. لذا فإن الحزبية العروبية في إحدى وجوهها كانت شكلاً من أشكال عداء المدينة للدولة، إلى جانب الزعامات المحلّية، وشباب الأحياء وقبضاياتها.

إنتهى الصيف، وشارفت الثورة على نهايتها، أزيلت المتاريس وانفتحت شوارع المدينة بعضها على بعض، وعادت الدولة بحلّة جديدة وشعارات ومعها النشيد الوطني وصور فخامة الرئيس. وعدنا إلى المدرسة في أول الخريف وقد تصالحت المدينة مع الدولة.

لم يأخذ مدير المدرسة وناظرها والأساتذة مسألة إنشاد الطلّاب للنشيد الوطني عند اصطفافهم في الساعة الثامنة إلّا عشر دقائق صبيحة كل يوم، محمل الجد، ولم نأخذ نحن التلامذة الأمر على محمل الجد، بل إنتابنا شعور من يقلّد أمراً مصطنعاً لم يألفه ولا يخرج من صميم قناعته. لهذا كانت الإبتسامات ترتسم على شفاه الطلّاب يقابلها عبوس المدير وناظره اللذين يأخذان في لحظة النشيد مظهر القادة لجهة إنتصاب قامة كل منهما وتطلعهما في الفراغ.

لا بدّ أن الأمر تمّ بتوجيه من دائرة التربية في المحافظة، التي تتلقّى بدورها التعليمات من المدير العام أو الوزير. كانت وزارة التربية في تلك الأوقات، في نهاية الخمسينات ومطلع الستينات، تنشط لتعبّر عن ميل الدولة إلى بناء «دولة قوية لكل المواطنين». والحق أن المدرسة الرسمية كانت في أوج ازدهارها، إزدهار سيستمر حوالي عقد من الزمن قبل أن تنحدر إلى مصير يشبه مصير الدولة التي تسيّرها.

قمنا بإنشاد النشيد الوطني مرّات قليلة، ثم نسينا الأمر: نحن والأساتذة والناظر والمدير. إلّا أن أستاذنا في الصف الرابع الإبتدائي كان مسؤولاً عن كشافة التربية الوطنية التابعة للوزارة التي أزمعت على

تنشيط الحسّ الوطني وسط الناشئة. كان أستاذنا ينشدنا الأناشيد الكشفية في جميع الحصص الدراسية لا فرق. ويحضّ التلامذة على دفع الإشتراك وشراء الزي الكشفي إستعداداً للاشتراك في المخيم. وأنا نفسي لم أدفع الإشتراك ولا لبست زي الكشافة، ولا ذهبت إلى المخيم. ولكنني أنشدت الأناشيد وتلقيت المعلومات عن غاية الكشفية السامية. وقد بدت لي الكشفية شيئاً ساذجاً إزاء ما تعلّمناه ونتعلّمه، في ذلك السن المبكر، من مفردات الوطنية التي تسرّبت إلينا من خلال نشاطات الأحزاب في المناسبات التي لا تهدأ.

لم نأخذ النشيد الوطني، ولا الأناشيد الكشفية محمل الجد الشديد، وقد نُسي الأمر. وحين انتقلت إلى مدرسة أخرى بعد الصف الرابع الإبتدائي كان الطقس المتعلّق بالنشيد قد أصبح نسياً منسياً.

كانت الدولة تتعمّد نشر رموزها الوطنية: العلم والنشيد وصورة الرئيس في الدوائر الرسمية وفي المناسبات وخصوصاً في عيد الإستقلال. لقد دخلت الدولة بأبهتها في عيد الإستقلال عام ١٩٦٢ إلى مدينتنا. وحضر رئيس الجمهورية بنفسه. وأمكنني أن أراه من بعيد يحتلّ وسط السرادق الكبير الذي أقيم للمناسبة، ويزيل الستار عن النصب في وسط المستديرة الفسيحة. وأقيمت إحتفالات على قدر من المهابة في الملعب البلدي الذي لم يمض على إنشائه سوى سنوات قليلة، والذي هو ثمرة من ثمرات إهتمام الدولة بكسب ودّ أهل المدينة. أرسلت المدارس طلّابها ليشاركوا في الإحتفالات، التي شاركت فيها سيارة إسعاف وسيارات إطفاء وطائرة هيلكوبتر في مشهد تمثيلي يعبّر عن عملية إنقاذ يقوم بها أفراد من الطلّاب مع الدفاع المدني والإطفاء. لم يخلُ الأمر من الإدهاش، فصفق الحاضرون بشدة عصفت في مدرّجات الملعب، إلّا أن كل ذلك لم يسحر لبنا ولم يأخذ بعقولنا.

كانت الدولة تفعل شيئاً، ليس في المناسبات فقط، ولكن في أغلب الأيام. فهناك مشاريع أعد لها وخطّطت، وكان بدأ قطع الأشجار لإقامة منشآت المعرض الدولي. ثم جرى شق للطرقات وهدمت بعض الأحياء القديمة من أجل توسيع الطرقات، فقيل أن الدولة تتعمد ذلك لكي تتمكّن آلياتها من الدخول إلى الأحياء التي استعصت عليها إبان الثورة التي كانت ذكريات وقائعها لا تزال ماثلة في الأذهان.

ثمة إعجاب بأعمال الدولة ومشاريعها بدأ يراود النفوس، من جهة، لكن، من جهة أخرى، هناك شكّ بنواياها. كانت الدولة تشقّ الطرقات. وتخطّط للمشاريع، تحدّث الإدارة وتمدّ أسلاك الكهرباء إلى القرى القريبة والنائية. لكن ذلك، وإن رفع من شأنها في أعين بعض من هم أكبر سناً منّا، لا يبدو شيئاً بالقياس إلى الشعارات التي أخذنا نؤمن بها... كانت الأغاني التي تصدح بها الإذاعات العربية هي التي تأسر لبّنا وتثير حماستنا.

لم تكن الدولة غائبة عن أذهاننا، ولكن عادة ما كان حضورها يأخذ الشكل السلبي بالنسبة لنا. فحين كنا نشارك في المظاهرات التي يقودها الطلّاب في الصفوف العليا، كنا ننطلق من أسواق المدينة الداخلية إلى شوارعها الحديثة وصولاً إلى السرايا رمز الدولة ليطلّ علينا المحافظ أو من يقوم مقامه، فنسمعه شكوانا الوطنية أو المطلبية. والمفارقة أن الدولة التي كانت بالكاد تحظى باعتراف المتظاهرين كانت موضع المطالبة والشكوى.

مضت الأمور على هذا النحو لوقت طويل، كانت المواجهة بين المدينة والدولة قد انتصبت منذ أيام آبائنا وراوحت في أيامنا، فاستقطبت عناصر عديدة واتخذت أشكالاً مختلفة. الحق إننا كنّا نعتزّ بمدينتنا إعتزازاً عظيماً، فهي تاريخ عريق تزدوج فيه معاني الثقافة

والدين. لا يتعلّق الأمر بتاريخ أسطوري مغرق في القدم، ولكن هذا الشعور المديني هو إرث مشترك بين كل المدن المشابهة. ففي ظلّ التحوّلات التي شهدها قرن مضى، كان إبن المدينة يواصل إنتماءً عميقاً إلى مدينته التي تشكّلُ بالنسبة إليه الفضاء الواسع حيث موطنه ولغته ودينه. وهذا الفضاء الواسع هو في آن عالم ينطوي على تقاليده وعاداته وتاريخه الخاص. وصَعُب على أبناء المدينة أن يتقبّلوا كون الدولة تفرض انتماءً يتجاوزها. فعندهم أن المدينة تضاهي الدولة وتبزها. إنه شعور محافظ ولا ريب، لكنه ينطوي على جدلية تاريخية عميقة يتفوّق فيها الشعور بالإنتماء إلى مثال تاريخي على نماذج الحاضر. لم ترضَ المدينة أن تستبدل هويتها بالإنتماء إلى فكرة الدولة المجرّدة و«المصطنعة»، لذا يكلّف الإنتقال من المدينة التي يتطابق مثالها مع إجتماعها، إلى الدولة التي هي فوق مجتمعها، الكثير من الإستعارات، واستثارة القيم المتضاربة أحياناً، والكثير من الشعارات... والتضحيات.

صوَر وأفكار

الصور جزء من مخيّلة تنتظم أفكارنا وذكرياتنا. صور كثيرة تنتشر في المناسبات ترافقها أعياد ومهرجانات. صور أشخاص إلى جانب شعارات مختصرة مخطوطة بالأحمر أو الأسود أو اللونين معاً على قماش خام بأحرف كبيرة بارزة. المفردات والكلمات هي نفسها تقريباً رغم اختلاف المناسبات التي تثير مع ذلك نفس المشاعر. أو أنها لكثرة المناسبات، إختلطت بعضها ببعض. مناسبات للحزن أو الإحتجاج أو للإبتهاج بالنصر يتمّ التعبير خلالها بنفس الأدوات والوسائل. مناسبات لا تحصى منذ ١٩٥٦ التي ترقى إليها أول ذكرياتي، أو أنها ذكريات ومشاهد تكوّنت في مخيلتي لاحقاً. لا أذكر سوى صور لأشخاص، صور نصفية في المناسبات الوطنية والمحلّية على السواء. كانت الصور تُرفع سريعاً في الليل، تُربط إلى خيط من القنّب لتشكّل حبلاً يُعلق من جهتي الشارع بشكل متلاحق بحيث تشكّل ما يشبه سقيفة تغطي مرورنا اليومي في ذات الدروب والمنعطفات. سقيفة من الصور والورق الملوّن واليافطات وأقواس النصر، على قدر عظم المناسبة، لإضفاء أجواء الإحتفال والإنتصار: في العدوان الثلاثي، في الانتخابات النيابية في السنة التي تلتها، في الإعلان عن الوحدة في السنة التي أعقبتها، في نصرة الجزائر، في ثورة العراق.. عشر سنوات من الصور في عشرات المناسبات والأيام الخالدة، أعقبتها عشر سنوات أخرى من الصور والشعارات.

الصورة الأولى في مخيّلتي كانت ملوّنة تحمل رسم ضابط

عسكري، شاب بعيون زرقاء، رفعت الصورة في أماكن مختلفة من الحي ومن المدينة وتداولتها الصحف والأيدي ووزّعت. واختصر إغتيال صاحب الصورة قضية برمّتها، قطعت بين الذين من جهتنا وبين القلّة من الخصوم والأعداء. أعقب ذلك رفع صورة أخرى لضابط آخر ببزّته وقبّعته العسكرية، قضى في معركة القنال، صورة للبطولة التي لا تكتمل إلّا بالشهادة.

تلك كانت طريقة للتعبير عن الأفكار والمبادئ، عن العقائد التي تختصرها أفكار مشخصة هي رموز للجمع والتوحيد. لهذا شقّت الصور طريقها إلى داخل دكاكين الباعة وإلى داخل المنازل، تحتلّ أمكنة مرموقة على الجدران الداخلية وتحاط بإطارات فضية أو ذهبية وتحاط أحياناً بأزهار اصطناعية. كانت الصور تتبدّل، وقد أفسح الزعماء المحليون المكان للأبطال الوطنيين، فانخفض شأن صورهم التي لم تكن تظهر إلّا في المواسم الإنتخابية كل أربع سنوات. في الآونة التي صرت فيها تلميذاً يذهب إلى المدرسة. كانت صورة واحدة لشخص واحد قد احتلّت مكان كل الصور الأخرى واختصرتها فارتفعت في كل المناسبات دون استثناء، بحيث زالت ونسيت سابقاتها.

لم يكن زمن طويل قد مرّ على انتشار الصور في محيطنا، كانت العائلات في صدر منازلها تعلّق صوراً لكبار العائلة، يعود أقدمها لبدايات القرن حين أدخل المصورون الأرمن ثم الفرنسيون آلات تصويرهم العارمة التي ترفع على قوائم فتبدو كحيوان اصطناعي من معدن. كان الرجل دون المرأة غالباً يحتفظ بصورة واحدة. وحتى بدايات القرن كان بعض التقاة والفقهاء في مدينتنا يرفضون أن تلتقط لهم صوراً. صورة واحدة على مدى الحياة تكفي لتمثل الشخص، هذا إذا وجدت. ولهذا فإن الصور كانت عزيزة، وبعد غياب صاحبها

يُبالغ في إحاطتها بالإحترام والإعتناء فتحفظ خلف زجاج في إطار فضّي عادة وتحاط بتطريزات من خيوط الحرير الطبيعي. في الخمسينات كان المصوّرون الأرمن ينتشرون في ساحة المدينة الحديثة يجلسون على كراسي مرتفعة خلف آلات تصويرهم المرتفعة على قوائم. فقط في العيدين كنّا نأخذ لأنفسنا صوراً تذكارية في الحديقة العامة.

كانت الصور أشياء ثمينة، مهما كانت صوراً لملوك وقادة أو صوراً لكبار العائلة، صوراً شخصية فحسب، ليس بينها مشاهد أو مناظر طبيعية. ومنذ أن داخلت بيتنا وقُبلت، احتلّت مكاناً مرموقاً إلى جانب الآيات القرآنية وسجّادات الصلاة التي حملت وحدها رسوماً للكعبة.

كانت الصور أشياء ثمينة تستحق الحفظ والعناية، لهذا فإن بائع الزجاجيات عند مدخل خان الخيّاطين كان احتفظ بجميع الصور التي مرّت به، وتلك التي ورثها عن والده ربما، وكان شديد الإعتزاز بمجموعته وظنّ أنها تخفي ثروة صغيرة. لكنه لم يكن ضنيناً بها، فكان يرفعها أمام دكانه في الصباح ويعيد توضيبها في المساء. نصف قرن أو يزيد من الصور التي نقرأ عبرها التاريخ من خلال رموزه وأبطاله؛ من السلطانين عبد الحميد ومحمد رشاد إلى الملك أحمد فؤاد والأمير فيصل على صهوة جواد صور لملوك وأشخاص لم تُحفظ أسماؤهم. شخصيات حقيقية وأخرى خيالية: عنترة بن شداد والظاهر ببرس ورجال دين ومتصوفة وعسكريين وباشوات وزعماء محلّيين. صور ضخمة بالحجم الطبيعي وأخرى صغيرة، ولا تخلو الواجهة التي ترتفع أمتاراً من صور لصاحب دكان الزجاجيات نفسه بقلبقه وشاربيه مع شخصيات معروفة وأخرى غير معروفة أخذت في أوقات سابقة. بعض صوره ملوّنة تلويناً يدوياً وأغلبها بالأسود والأبيض.

كنتُ أتقصد الذهاب حين يمكنني أن أفعل، إلى المحلّة التي يقع فيها دكان الزجاجيات لأتأمّل الصور. كنتُ أجهل أسماء أصحابها ومع ذلك أستشعر كثافة الزمن الذي تحجبه خلفها. كنتُ أستغرب في كل مرة أذهب فيها إلى ناحية خان الخياطين هذا الطقس الفريد الذي يجعل صاحب دكان الزجاجيات يرفع هذه الصور بإطاراتها الفضية والذهبية والخشبية في الصباح ليعيد جمعها في الداخل عند الإقفال، حتى صار معروفاً في كل أنحاء المدينة. وكانت الدهشة تساور المارة الريفيين الذين يزورون السوق فيتوقفون أمام دكان الزجاجيات متفرسين. وكان نفسه يبدي الرضى حين يكتشف أحد المارة أو أحد زبائنه صاحب الدكان في خضم الصور المختلفة الأحجام والأزمان، هو نفسه بشاربيه المعقوفين وقلبقه التركي كأنه لم يغادر الماضي أبداً.

لكن الشيخ حسن، صاحب المكتبة التي في أول سوق العطّارين، لم يعلّق صوراً شخصية أبداً، كان تقيًّا ورعاً رفض الصورة تبعاً لما تمليه عليه قناعته، فاستعاض عنها باللوحات المخطوطة التي يخطّها بيده. في دكان مكتبته احتفظ بجميع اللوحات الكرتونية المخطوطة بالشعارات التي يعلّقها على الجدران المحيطة بحيث يحجب بعضها بعضاً. كانت شعاراته من إبتكاره، لا علاقة لها بما تروّجه الأحزاب والجمعيات، يخطّها بالطبشور الأبيض على ورق أسمر مقوّى، وكان لا بدّ لكل واحد منها أن يشتمل على مفردة مشتقّة من كلمة عرب. كان عروبياً متحمّساً، وقد رفع شعار: الولايات المتحدة العربية وغيره. في بعض المناسبات كان يضع لوحاً من الورق المقوّى على ظهره وآخر على صدره ويردد بصوت مرتفع الشعار المدون وهو يعبر السوق من أوله إلى آخره. لكن تقواه وتديّنه فاقا عروبته. وقد احتفظ لوحده بعادة «التكبير» في الأيام السابقة لعيد الأضحى. ومن حين إلى آخر، في أوقات الصلاة، كان يمرّ في السوق داعياً الناس إلى الصلاة.

إشتملت مكتبة الشيخ حسن على كافة أصناف الكتب، وغطت قرناً من الطباعة العربية. وحين عُرفت قيمة ما تحتويه المكتبة أفرغها هواة جمع الكتب أو تجّارها من كل نادر وثمين، فاكتفى بعد ذلك في أول شيخوخته بتأجير المجلات والقصص لصبية المدارس. كانت مكتبته غير بعيدة عن مدرستنا الإبتدائية، وكان التلامذة يستعيرون القصص المصوّرة والمجلّات لمدة أسبوع بأزهد الأثمان.

كانت صورة واحدة لشخص واحد قد أخذت تختصر كل الصور الأخرى، صورة عبد الناصر؛ بالأسود والأبيض أو بالألوان، باللباس المدني أو الزي العسكري، مفكّراً أو مبتسماً. صور كثيرة لشخص واحد بأحجام مختلفة. لست أدري كيف تمّ التوافق على رفع واحدة منها ضمن إطار فضي في صدر منزلنا. كان بعض إخوتي قد ذهب إلى دمشق حين زارها صاحب الصورة بشخصه بمناسبة إعلان الوحدة. وحين اصطحبتني والدتي في زيارة عائلية إلى حمص في سن السابعة. إشترت لي صورة من صوره الكثيرة عندما توقفنا عند الحدود، صورة ملونة غير تلك التي علّقناها على الحائط.

لم نعلّق صوراً أخرى، لا مناظر طبيعية ولا رسوم تشكيلية، صورة واحدة انتقلت معنا من منزل إلى آخر. فقط القرآن في حافظة من القماش كان يرتفع فوق سرير والدي.

نشأنا نشأتنا الأولى بين صور العروبة وشعاراتها وخطاباتها في الإذاعات، وقصائدها التي تلقى خلف مكبرات الصوت في المهرجانات داخل صالات مغلقة أو في الساحات العامة. كانت الهتافات تجذبنا لسهولة حفظها، وهي أشبه بأراجيز يردّدها المتظاهرون في المسيرات والمهرجانات. تنشقنا العروبة في المنزل، وداخل صفوفنا المدرسية في الحي والسوق الذي نعبره من المنزل إلى المدرسة. بعض أساتذتنا كانوا حزبيين نشطين، قلّة من

الأساتذة كانوا حزبيين، ولكن تأثيرهم كان ملحوظاً. لم يحدّثونا عن الوطنية إلّا قليلاً، لصغر أعمارنا ربما، ولكن كلمات قليلة كانت كافية، وهم الذين يغضون الطرف عن إضراباتنا وتعطيلنا الدراسة في المناسبات الوطنية.

كنا عرباً، ومع ذلك كنّا مسلمين في أعماق نفوسنا. وتوقّف الأمر إلى حد بعيد، على طريقة ترتيب الأولويات. فالآباء كانوا يدمجون العروبة بالإسلام على النحو الذي دمج فيه بائع الزجاجيات صور أمراء الثورة العربية بسلاطين بني عثمان، دون أن يعطي بالاً لثورة الأمراء على السلاطين. أو أنهم دمجوا العروبة بالإسلام - على نحو ما جعل الشيخ حسن صاحب المكتبة - العروبة جزءاً من تقواه وإيمانه. كانت العروبة مناخاً طبيعياً وامتداداً لمعتقداتنا، تتخلّل محيطنا برمّته: العائلة والجيران، السوق والمدرسة والمدينة برمّتها، وتراءى أنها صبغت جميع البنى وأقنعت الأجيال المتعاقبة. لكن جيل الأبناء كان يريد أن يقدم العروبة في شكلها القومي إلى المرتبة الأولى، من هنا سوء التفاهم بين الآباء والأبناء، يُعزى إلى الطريقة التي تستخدم فيها الشعارات والمصطلحات. ومع ذلك فإن الصورة الواحدة كانت ضمانة لاستمرار الإجماع.

لم تكن ثورتنا، حين ثرنا إثر الهزيمة، تستهدف العروبة، ولكن صورتها ورمزها الذي امتدّ إلى مضمونها ومعناها. لذا أنزلت بيدي الصورة التي احتفظت بمكانها على الجدران، لما يزيد عن عقد من الزمن، في صدر منزلنا، فبقي الجدار عارياً.

كنّا نريد أن نستبدل الصور بالأفكار والتحليل، وخصوصاً: «التحليل الموضوعي للظروف الموضوعية»، فأمضينا النهارات في اجتماعات حافلة بالنقاشات وسهرنا الليالي عاكفين على سبر أغوار الكتب. وكنّا نمضي إلى الخلايا الشعبية حاملين أفكارنا ومصطلحاتنا،

مسقطين جميع الصور والرموز، أو هكذا تهيأ لنا. لكن الأفكار والكتب ما كان بالإمكان رفعها على الجدران أو تزيين الشوارع بها وربطها إلى خيطان القنّب من طرف الشارع إلى طرفه الآخر.

كان لا بدّ من صور وشعارات أخرى بدل التي أنزلت وأزيلت. والصور الجديدة لم تشغل الفضاء الذي شغلته سابقاتها، بل أوجدت حيزها الخاص وقد أخذت المدينة شكلًا جديداً. لم تعد الصور ترفع معلّقة بأناة على خيط من القنّب لتغطي الأسواق على شكل سقيفة ورقية، بل صارت تلصق بالغراء على جدران المدينة في كل مكان. صور متدافعة يغطّي بعضها بعضاً وتخالطها الألوان. ولم يعد ممكناً التمييز بين الصور والرموز والأفكار في خليط متنافر على جدران المدينة.

شوارع المدينة

عرفتُ المدينة القديمة، سوقها الطويل الذي يصل ما بين طرفيها دون انقطاع. سوق طويل تتفرّغ منه أزقّة ودروب وحارات داخلية. كان بإمكاننا، نحن الصبية، أن ندخل في أزقّة معتّمة نكتشف تعرّجاتها وصولاً إلى القلعة، أو وصولاً إلى بركة الملاحة أو الدبّاغة عند ضفة النهر. أسواق مسقوفة تتّصل بفسحات واسعة تفضي إلى منازل تتقدّمها شبه حدائق. كنّا نقصد القلعة في أيام الربيع خصوصاً، ولا تفصلها عن مدرستنا سوى ممرّات مسقوفة وأدراج، كنّا نشعر في طريقنا كأننا ندخل المنازل ونخرج منها دون أن يشعر بمرورنا أحد. في الساحة الواسعة أمام باب القلعة الهائل كنّا نلعب ونصطاد الصراصير الملوّنة. وكانت الأسوار العالية تجذبنا إلى لعبة الحرب والقوس والنشّاب. ومع ذلك لم نفكّر طويلاً بالتاريخ الكثيف الذي تحمله تلك الأسواق والأزقّة الداخلية. ولم ندرك كون أجيال متعاقبة مرّت من هنا وعاشت في تلك الدروب والعقبات. كانت تجذبنا تلك الحياة المنوّعة، ذلك التداخل بين عوالم مختلفة ليس بينها حدود واضحة، إختلاط الخلق والمهن والروائح والأصوات. ثمّ أن السوق هو محيطنا الذي نعيشه ولا نفكّر به.

في تلك المدّة كانت تجذبنا، نحن صبية الحارة وليس صبية المدرسة، الجهة الأخرى من المدينة، في أوقات الربيع خصوصاً، حيث كان بإمكاننا أن نعبر من طريق بيروت القديمة، عبر بساتين الزيتون، لنصل إلى «البولفار»، طريق بيروت الجديدة التي كانت في طور الإنشاء. وفي نهاية الطريق التي في طور الإعداد، نتوقّف قبل أن

نعبر الجسر. هناك عند ظاهر المدينة تتوقّف رحلتنا، فنعود أدراجنا إلى باطنها. أما وسط المدينة الحديث فلم أكن أرتاده إلّا في المناسبات، في الأعياد أو في زيارة الأطباء الذين كانوا يقيمون عياداتهم خارج السوق القديم، وفي المدينة الحديثة جعلوا عياداتهم في عمارات مرتفعة وضخمة.

في السنوات اللاحقة، حين صرت أذهب إلى المدرسة بمفردي، كان بإمكاني أن أسلك عدة طرق، واحدة تمرّ بمحاذاة السوق القديم، وأخرى تمرّ في وسط المدينة وساحتها الحديثة. كنتُ أختار في الغالب شارع المطابع المتّصل بشارع الراهبات المفضي إلى ساحة النجمة، بحيث أصير في البيئة التي نشأت فيها أصلًا، وصولًا إلى المدرسة. في المرحلة التي تمرّ عبر الزاهرية كنت أصادف طالبات ثانوية البنات بثوبهن المدرسي المائل إلى اللون الزيتي. وفي شارع الراهبات المستقيم، كنت أصادف طالبات مدرسة الراهبات بثوبهن المائل إلى الزرقة. كان الرصيف من جهة اليمين يحاذي حائط المدرسة الحجري الذي يستغرق ثلاثة أرباع إمتداد الشارع. وكان باب المدرسة الحديدي يقع في وسط الحائط الحجري الذي هو بمثابة سور مرتفع. كنتُ أتباطأ في سيري حين أصل إلى أول الشارع تاركاً لنفسي فرصة التفرّس في وجوه الطالبات اللواتي سرعان ما صرت أبحث عن وجه واحدة منهن أثارت إنتباهي بحيث صار همي الصباحي أن ألتقي بها قادمة من منزلها الذي تغادره في السابعة والثلث لتصل المدرسة قبل السابعة والنصف.

شغفت بطالبة مدرسة الراهبات، وكان دليلي إلى أخبارها زميل في صفي. في أيام العطل كنتُ أقصد حيّها لأحظى برؤيتها. وهكذا سلكتُ كل الدروب المؤدية إلى منزلها وصرتُ خبيراً بالأرصفة والدكاكين والوجوه.

أنستُ حيها، فوسعت دائرة تجوالي، بحيث كنتُ أصل إلى المبنى الذي يقع في الطابق الثالث منه منزلها، من أماكن متباعدة: من جهة شارع الراهبات ومن الطرف المقابل الذي يقع فيه شارع العجم، بل حتى من جهة ساحة الدفتردار المتّصلة بالسوق القديم لجهة الشرق. وامتزج تعلّقي بها بعادة تسكّعي في الدروب والطرقات المحيطة بمنزلها، ووطّدت ما أمكن من علاقات مع صبية وزملاء لأجد ذرائع للمرور في تلك الناحية.

كان حباً أولاً، لم أعرف ماذا أصنع به، خصوصاً أنها لم تتنبّه لتسكّعي، ولم يشغلها مروري عشرات المرات أمام منزلها، فلم أكن سوى صبي من جملة الصبية الذين يزدحم بهم حيها.

نسيت طالبة مدرسة الراهبات تدريجياً حين بدأت أنشغل بجارتنا في الحي الذي أسكنه. كانت أجمل فتيات الحي على الإطلاق. كان فيها شيء من الجمال الإغريقي وشيء من السر الذي لم أكتشفه. أقعدني شغفي بها في المنزل خلال صيف كامل لا أغادره حتى أعود إليه، فظنت أمي أني مريض، ولعلّني كنت مكتئباً إلى درجة اليأس. كنتُ أجلس بحيث أراقبها من النافذة المطلّة على شرفة منزلها، فنتبادل النظرات والإشارات وحباً صامتاً. ويصدف أن نتلاقى في الطريق فنتمتم بتحية أو كلمات ونرتجف وتحمرّ وجوهنا، ولعلّها كانت تنتظر أن أصارحها بحبّي، لكنني لم أجرؤ على ذلك أبداً.

لم أجرؤ على مصارحتها، على الوقوف في وسط الشارع أمامها لأقول لها كلمة بصوت واضح. لم أجرؤ أن أتبعها إلى مدخل البناية التي تسكن في الطبقة الخامسة منها، لأمسك بيدها وأقول لها أحبك. كنتُ خائفاً، وخصوصاً من سخرية أصدقاء الحي أو زملاء المدرسة. ففي وسطنا الذكري كان يجدر بكل واحد من الصبية المراهقين أن يعبّر عن شغفه بأكبر عدد من الفتيات، تعبيراً لا يخلو من بذاءة أو

فحش صبياني، وأن يحدّث بمغامرات خيالية ليس فيها أي قدر من الصحّة. لكن إذا ما شاهدنا أحد الزملاء متلبّساً عند زاوية يكلّم فتاة، يصبح موضع سخرية، لذا كنّا نتجنب مصادفة نسيباتنا في الأماكن العامة حتى لا نُضطر إلى محادثتهن. كأن الكلام مع واحدة من الجنس الآخر ينقص من ذكوريتنا.

كانت العلاقة التي تنشأ بين شاب وفتاة، في سنوات مراهقتنا، موضع مشاعر متناقضة، لأنها مصدر فخر واعتزاز، من جهة، ومصدر سخرية، من جهة أخرى. وبقدر ما يفتخر الشاب بعلاقته، يخشى أن تعرّضه للهزء من رفاقه الذين يسخرون من عشقه وشروده، ومن تورطه، ومجرد تولّهه بحب واحد، وحين تصبح العلاقة جادّة يصير صاحبها موضع شفقة.

نسيتُ جارتنا ذات الوجه الإغريقي كما فعلت بطالبة مدرسة الراهبات. نسيتُها في غمرة صحبة الأصدقاء، رفقة صبيانية نعوّض عن معرفة الفتيات بالحديث عنهن. ولم أعد أقدر أن أقعد في المنزل قعوداً نسائياً بانتظار أن تطلّ من شرفتها، فعوضت عن مكوثي صيفاً كاملاً في غرفتي بالخروج الدائم. صرنا نتعقّب فتيات كل المدارس في كل الأوقات، في تلك الشوارع الحديثة الواسعة والعمارات المرفهة. حيث كنتُ أصادف فتيات تتناسب صورتهن مع نموذج ارتسم في مخيلتي عن الفتاة التي أبحث عنها. وملتُ إلى بنات مدرسة الأميركان ومدرسة عبرين. وحفظت خط سير الأوتوكارات التي تنقل الطالبات من منازلهن إلى المدرسة. فتيات كثيرات لفتن انتباهنا في مدة وجيزة من الوقت، صرنا نعرف مواعيد خروجهن من منازلهن وعودتهن من المدرسة، ونتبادل المعلومات عنهن، الأسماء والأعمار والهوايات ومعلومات أخرى.

هكذا اكتشفت الجانب الحديث من المدينة، شوارع لم أكن أعلم

بوجودها، أحياء داخلية، طرقات واسعة ومباني مرتفعة، اكتشافاً يعزى إلى جهدي الشخصي برفقة الأصدقاء. كان ذلك الشارع الطويل الذي شقّ في بدايات القرن بين بساتين الليمون، والذي تفرّعت منه الشوارع الأخرى، هو مسرحنا ومنطلق اكتشافاتنا. شوارع هادئة آنذاك، أنيقة ونظيفة، فيها الكثير من صفات اللواتي نبحث عنهن ونشغف بهن. شوارع نسائية إذاً، لإننا لا نبحث فيها عن شيء آخر.

إختلط تعلّقنا بفتياتنا الأقرب إلى الأطياف، بتعلّقنا بتلك النواحي التي لا نملّ من التجوال في دروبها والتسكّع فوق أرصفتها والتوقّف عند واجهات محلاتها لتقطيع الوقت. حفظنا كل الأسماء، الناس والأماكن، وصارت لنا خبرة بالدكاكين والمباني وسكّانها وروادها، الذين ينافسوننا في ذات المسعى.

كنّا نمضي بدون هدف محدّد تقريباً، في كل ساعات النهار، وكل الفصول لا يعيقنا مطر أو لزوجة أشهر الصيف. ومع ذلك فإن أجمل فترات السنة كانت عند افتتاح المدارس في تشرين، ومدة الربيع القصيرة.

كل الفتيات اللواتي من جيلي، صديقاتي الخياليّات، كنّ يحملن أسماء قصيرة مكوّنة من ثلاثة أحرف بينها الألف أو الهاء، أسماء هينة اللفظ تنشد الحداثة، ضمن السعي المحموم لمغادرة التقاليد بما فيها الأسماء الموروثة. كل الفتيات كنّ ندى وهبة وهنا وزينة وريما ومهى. . . أسماء لها ذات الجرس والوزن تكشف عن أوساط إجتماعية وعن مصائر من سينغمسن في حداثة وانفتاح الستينات.

ثلاث أو أربع سنوات من مراهقة سعيدة قضيتها في تعقّب الفتيات، عرّفتني بشوارع المدينة الحديثة معرفة تليق بخبير. لكن الأمر، توقف فجأة ودون مقدمات. إنشغلت بالنشاطات الطالبية، وحياتي الحزبية الجديدة وتوزيع المنشورات وتنظيم المظاهرات

والإضرابات، وبشكل خاص الإجتماعات المتواصلة التي تستغرق الساعات الطويلة، إجتماعات خالية من الفتيات اللواتي تركتهن لأقدارهن.

لم يكن تغييراً في الإهتمامات فحسب، بل تبدّلاً في العادات والأفكار، أهملنا مظهرنا وأقلعنا عن سماع الموسيقى الغربية، واستبدلنا حياتنا التي كانت ساذجة مثل فتياتنا، بكل ما هو جدي وكثيف، أو هكذا اعتقدنا: التدخين الكثيف، الإجتماعات الطويلة الأجل، الكتب السميكة والسهر حتى ساعات الصباح. كبرنا سنوات في مدى أشهر بين الخريف وأول الصيف التالي.

لم يكن تبدّلاً في العادات والأفكار فحسب، ولكنه كان قبل كل شيء تغيير في الأمكنة. فلم تكن «الحزبية» لتصمد في تلك الشوارع العريضة المكشوفة، فلزم أن نجعل ميداننا الأحياء الشعبية والفقيرة، أطراف المدينة. هكذا قادتني النشاطات الحزبية إلى إكتشاف أجزاء أخرى من المدينة لم أطأها من قبل أبداً.

أطراف المدينة وأحياؤها الداخلية هي مسرح للإجتماعات والإتصالات للتعرّف إلى أوساط العمال والمهنيّين.

حياة حزبية جلفة، تطرد النساء طرداً شنيعاً للإحتفاظ بطهارة ثورية، الأمر الذي لم نقوَ على احتماله، فجعلنا بوابات مدارس البنات جزءاً من نشاطاتنا. لكن الرفيقات كنّ يجئن من أوساط أخرى، كنّ في غالبيتهن من طالبات المدارس الرسمية، على عكس اللواتي شغفنا بهن في المواسم السابقة. أقل أناقة واعتناء بزينتهن، نتسابق على أن نحظى بدور الإتصال بفرقهن.

واقع الأمر أن جهات المدينة جميعها صارت مسرحنا... شوارع للنضال وأخرى للتسكّع، شوارع ذكرية وأخرى نسائية، شوارع فقيرة وأخرى ثريّة.

الأمكنة، الشوارع والأحياء والمقاهي، كالذكريات: بعضها تعود إليه دائماً، وبعضها لا يمرّ في خاطرك إلّا في المناسبات، وبعضها يدخل في طيّ النسيان.

العبور إلى الستّينات

بدأت الستينات مبكرة في مدينتنا، وانتهت قبل أوانها، واستمرّت لحوالي ثماني أو تسع سنوات، بين ١٩٥٨ و١٩٦٧، أي أنها تقع بين ثورة محلّية وحرب إقليمية، أنها طريقة لتحقيب الزمن بين الوقائع المصيرية. هذه الوقائع التي يعتني بها كتبة التاريخ، هي في الأساس نقاط إرتكاز في ذاكرة جيلين أو ثلاثة أجيال من أبناء المدينة. ثم أن لهذه الوقائع معناها الخاص بالنسبة لحياة المدينة ذاتها. لإن الحدث الواحد يمكن أن تعيه الذاكرة بأشكال مختلفة، بحيث تتراكم التأويلات المختلفة للواقعة الواحدة كطبقات جيولوجية فوق معالم العمران والأحياء والشوارع.

ثمّة في الواقع أحداث أخرى، تنتمي لعقدين سابقين. هي ألصق بذاكرة الأجيال التي تناقلتها بروايات لا حصر لها، كأن لكل حي أو عائلة روايته الخاصة عن ذات الواقعة فعاشتها أجيال لاحقة كأنها شهدتها بنفسها. ذلك شأن واقعة القاوقجي، القائد الشهير، عام ١٩٤٧، وكطوفان النهر عام ١٩٥٥. وأمثالي ممن ما كانوا ولدوا عند الواقعة الأولى، وكانوا في سنوات عمرهم الأولى عند الثانية، بإمكانهم أن يرووا التفاصيل الدقيقة عن كل واحدة من الواقعتين كأنهم حضروا مسرح الحدث لحظة وقوعه.

يُسجّل كل عقد من السنين واقعة مميّزة، واحدة على الأقل، لكن ثمّة عقود تزدحم فيها الوقائع التي تحتفظ بها الأذهان كعلامات لإنعطاف الزمن.

لا بدّ أن الواقعة التي يمرّ بها التأريخ سريعاً أو متباطئاً تكثف جملة من التشابكات غير المنظورة أو غير المقروءة. لقد كانت واقعة القاوقجي تقاطعاً بين آثار الحرب في فلسطين، إذ كان القاوقجي قائداً لجيش الإنقاذ، وبين تعقيدات السياسة اللبنانية، وبين تناقضات وصراعات الزعامات المحلّية في المدينة. وعودة قائد جيش الإنقاذ إلى مدينته أحدثت مجزرة طبعت السنوات اللاحقة بطابعها. لكن أثر طوفان النهر كان من نوع آخر، كان إيذاناً بانقلاب أهل المدينة على الحيّز المكاني التاريخي والإنطلاق خارجه.

كانت ثورة ١٩٥٨، تمثّل بالنسبة لأهل المدينة المواجهة الأخيرة والمتأخرة عن موعدها مع الدولة، وكانت مواجهة مع بقايا النموذج الإنتدابي في المجتمع والدولة. كان لثورة ١٩٥٨ تقاطعاتها، جاءت في أوج الصعود القومي، فكانت تعبّر عن المشاركة في أحداث المنطقة وولوجاً في صراعاتها، لهذا فأن سلاح «الثوّار» كان يأتي من الإقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة. وكانت الثورة حدثاً لبنانياً لأنه شهد مواجهة بين الزعماء من الطوائف المختلفة. لكن في عمق الوعي المحلّي، كانت المدينة بمقاومتها الشعبية ومواجهتها للجيش، تستحضر تاريخها القريب والخاص بها. كانت الثورة أشبه بإضراب طويل غطّى أشهر الصيف، فتعطّلت المصالح وقبعَ الأهالي في منازلهم كما فعلوا في إضراب الأربعين يوماً عام ١٩٣٦. وفي مواجهتهم للمصفحات إستحضروا ذكرى معركة الإستقلال عام ١٩٤٣، حين دهست الدبابات الفرنسية متظاهرين في ساحة المدينة الرئيسية وجوارها. ثمّة نوع من الثأر، حين يقيم اللاوعي الجماعي تماثلاً بين وقائع تنتمي إلى أزمان مختلفة.

قالت المدينة كل ما أرادت قوله خلال أشهر صيف ١٩٥٨، وقرنت القول بالفعل، كأنها بذلك تريد أن تنفس عن إحتقان سنوات

طويلة ماضية، وحين انتهت «الأحداث»، الإسم الآخر للثورة، طويت الصفحة ونُسي الأمر. كأن المدينة أخذت بثأرها من خصومها، وسعت إثر ذلك إلى مصالحة طويلة الأمد مع الأمر الواقع الذي تمخّضت عنه نتيجة الأحداث.

كانت نهاية الأحداث، إذاً، إيذاناً بالخروج من عزلتين؛ العزلة التي فرضتها المواجهة خلال أشهر الصيف المنصرمة، وعزلة مزمنة مغرقة في الماضي عانقتها المدينة كأنها قدرها، والتي في تلك اللحظة بالذات حسمت أمرها وقرّرت التخلّي عنه، كأنها بذلك تترك لقدرها أن يتدبّر أمر قدره.

كنّا على أهبة الولوج في الدولة، وفي الحداثة، في نفس الوقت تقريباً. وثمّة رابط بين الأمرين على أي حال، لأن الدولة في الوعي الشائع يومذاك، هي باب التحديث ومدخله، وسيرتبط باسمها لاحقاً مدّ الطرقات والشبكات والتخطيط وكهربة البلاد وإنشاء المؤسسات، كلّ ذلك تمّ في بداية الستينات.

ولمدّ الطرقات المستقيمة وشقّها شأن هام في خروج المدينة القديمة من عقالها، وله دور حاسم في توزيع الثروة وانتشار التحديث العمراني. فارتفعت أسعار الأراضي تدريجياً فصارت للعمران بعد أن كانت لزراعة الليمون.

ما إن انتهت الأحداث حتى خرج الأهالي من داخل مدينتهم إلى الحيّز الحديث الذي تقطنه غالبية من غير أهل المدينة الذين وفدوا إليها وتوطّنوا فيها في عهد الإنتداب أو حتى في عهد الإستقلال، كأن المدينة التي ثارت ثورتها في أشهر الصيف. حسبت أنها انتصرت في الخريف عند انسحاب عناصر الجيش. فملكت على نحو رمزي الحيّز الحديث واعتبرته حيّزها بعد أن أبدت طويلًا تجاهه الحذر.

وإذا كانت الدولة هي باب الحداثة، فإن الخوض فيها وتمثّل

نماذجها يبقى شأناً أهلياً، فتدافعت العائلات للخروج من القديم إلى الحديث الناشىء، وهبّت موجة من العمران باتجاه المناطق الجديدة. ولعل هذا الخروج كان يتمّ على دفعات ومراحل وباتجاهات تجريبية، إلى تخوم المدينة القديمة أولاً، ثمّ إلى الأحياء الأكثر إمعاناً في التجديد. فسيطرت حمى الإنتقال، أي الخروج من المدينة التي هدّدها الطوفان إلى حيث لا يمكن لخطره أن يصل. من هنا تلك العلاقة الممكنة بين الطوفان والثورة كخروجين على نظامين طبيعي واجتماعي. وقد أسهم الحدثان في خروج المدينة على ذاتها ومغادرة تاريخها.

خرج الأهالي من مدينتهم، وتركوا منازل عاش فيها آباؤهم وأجدادهم على مدى أجيال، القادرون على ذلك، والذين تدبّروا أمورهم، وأولئك الذين حصلوا على تعويضات بسبب شق الطرقات أو حصلوا على مساعدات بعد الطوفان. وأولئك الذين أزال مشروع المعرض أراضيهم كما الذين ارتفعت أسعار أراضيهم ارتفاعاً مفاجئاً وسريعاً. لقد حدث تبدّلٌ في مستوى المعيشة وأنماطها، وحدث تبدّل جزئي في مفهوم الثروة واستخدامها، فظهرت الثروات إلى العلن، بعد أن كان من يملكها يحرص على إخفائها. فصارت الثروة قيمة قابلة للتحويل والإستخدام والإستمتاع.

لكن هذا الخروج كان يتمّ في الزمن أكثر مما هو كائن في المكان. كان الإنتقال في المكان لا يتعدّى مئات الأمتار لكن المقصد هو الإنتقال من عصر إلى آخر، من وتيرة الزمن الداخلي للمدينة، أي من توقيت السوق الداخلي الذي يقفل بعد العصر وقبل الغروب، إلى توقيت تصنعه مواعيد الإدارات والمصارف ومواعيد الحفلات السينمائية والمقاهي المسائية. كان ذلك إنتقالاً من الخمسينات المثقلة بالماضي إلى الستّينات التي تعدّ بالمستقبل.

ترافق ذلك مع شقّ الطرقات داخل المدينة القديمة دون أن يأبه أحد لإزالة المباني المملوكية التي استقرّت هنا منذ سبعة قرون من الزمن، بالإضافة إلى تلك التي شقّت وسط البساتين: طرقات عظيمة الشأن واسعة ومستقيمة لا يقف في وجه امتدادها عائق. بولفار عريض على خطّين لا يمكن أن يقارن بالأسواق والأزقّة والدروب المتعرّجة. شوارع واسعة تمتد وتفسح المجال أمام امتداد العمران، وتمهّد لإفراغ المدينة القديمة من أهلها. ثم أخذت أعمال الهدم تجري على قدم وساق في محيط النهر الذي كانت على ضفّتيه تقوم المدينة المملوكية، نوع من الإنتقام الذي هدف إلى توسيع مجرى النهر بحيث يستوعب عشرة أنهار من عياره. وعلى الجانبين شقت جادّاتان عريضتان؛ حدث نوع من التمادي والإسراف في أعمال الهدم من جانب أولئك الذين خطّطوا، شجّعه صمت الأهالي ونزوعهم إلى مغادرة الماضي وتقاليده، الأزقّة الرطبة - اللطيفة المناخ في الواقع - إلى الشوارع العريضة والمباني المرتفعة الباطونية. وأزيل سوق النحّاسين في ذات الوقت، فاختفى ذلك الوقع الذي تحدّثه مطارق النحّاسين التي يعلو صداها فوق كل صدى، كان ضجيجاً فريداً اختفى إلى الأبد.

لا يخلو الأمر من جرأة، ليس فقط في إزالة الأحياء والأسواق، ولكن أيضاً في تبديل معالم الطبيعة والتلاعب بها. كأن الحداثة رديف للقوة والإرادة. لقد تطلّب إنشاء المرفأ ردم مسافة واسعة من الشاطىء، وتلك المساحة التي كانت تطلّ مباشرة على ماء البحر صارت جملة من المنشآت والطرقات المنبسطة. فأبتعد الشاطىء عن محطة سكك الحديد، وفقد البرج الصليبي وظيفته في مراقبة البحر الذي توارى كأنه لم يعد موجوداً. بدا الأمر كتبديل لخريطة البحر، تلاعب ولهو بالطبيعة التي استقرّت على نحو ما كانت عليه منذ الأزل. كأن العبور إلى زمن العالم يقتضي مثل هذه التضحية على أقل

تقدير. لقد عولنا جميعنا على إنشاء المرفأ الذي سيستقبل السفن من كل موانىء المتوسّط، بل من موانىء العالم البعيدة أيضاً، وعدٌ بالازدهار ودخول العصر بوسائله وشروطه ومتطلّباته. إنه لشعور فريد أن تمشي فوق ما كان منذ برهة وجيزة من الزمن ماء البحر العميق. تجوّلت كثيراً في تلك المساحة التي تزداد إتّساعاً يوماً بعد يوم وجعلناها ميدان لهونا، وكانت العائلات في أيام العطل تأتي للفسحة واستكشاف ما أحدثته الجرّارات والرافعات العملاقة، وصار بإمكاننا أن نذهب أبعد فوق اللسان الصخري الذي يعلوه الإسمنت ويجتاز الماء كخط مستقيم، وحين نصل إلى آخره نتوقّف لنتأمّل المدينة التي تبدو رابضة عند السفح البعيد يفصلنا عنها بحر عميق ينتظر أن تمخره السفن. وقد شاهدنا وصول أول السفن التي تحمل البضائع، فصعدناها وصعدنا إلى أبراجها ومقصوراتها وفعل مثلنا صبية كثيرون كانوا يأتون للهو واللعب. وبعد وقت قصير مُنعنا من دخول المرفأ بعد أن أقاموا عند مدخله بوّابة عارمة من شباك الحديد، فصرنا نتسلّل من جهة المسبح المجاور مقتفين أثر اللسان الصخري. في الجهة الأخرى من المدينة، بدأوا بقطع الأشجار، فأكملوا بذلك تبديل الوسط الطبيعي الذي يحتضن العمران؛ الآلاف من أشجار الليمون اقتلعت من جذورها على أرض شاسعة من مئات الهكتارات، فبدت الأرض جرداء قبل أن تنتصب في وسطها مباني الباطون التي تعدُ، هي الأخرى، بالانفتاح والمشاركة في سيرورة عالمية؛ وعود حفلت بها بداية الستّينات.

كانت بيروت هي المثال، مثال الإنتماء إلى الدولة والحداثة. وكان اكتشاف بيروت قد تمّ لتوّه بعد تجاهل طويل الأمد، باعتبارها مركز السياسة والعمل والمال والعلم. والإتصال مع بيروت يتمّ عبر شركتين، تأسستا في تلك الآونة، تسيّران أوتوبيسات تنقل المسافرين

من طلّاب جامعيين وموظفين وأصحاب مصالح، والذين يريدون توقيع أوراقهم الرسمية أو يودّون إستشارة طبيب وأولئك الذين يريدون التبضّع والتسكّع ومشاهدة الأفلام السينمائية أو السهر... وكان ازدحام المسافرين إلى بيروت يُحتّم تسيير أوتوبيس (بوسطة) كل خمس دقائق بعد ظهر يوم الأحد وصباح يوم الإثنين لنقل أعداد الطلّاب الجامعيين الذين يسبّبون نفس الإزدحام بعد ظهر يوم الجمعة في خط العودة من ساحة البرج إلى ساحة التل. كانت العودة إلى المنزل في نهاية الأسبوع طقساً من الحنين وانشداداً إلى عالم ما زال يحتفظ بخصائصه. والإتصال مع بيروت كان يتمّ أيضاً عبر شاشة التلفزيون الذي أنشىء لتوّه في مطلع الستينات، وعبر الشاشة كانت بيروت تُقدّم في صورة مترفة كأنها مكان اللهو والدعة والمعاصرة.

كان التبدّل يتمّ عبر مسالك متعدّدة. والواقع أن المدرسة صارت عميلاً للتحديث، وكانت منذ الأربعينات تقوم بدورها، لكن مع الستينات، فإن المدرسة الرسمية صارت ميداناً لتمازج إجتماعي خصب عماده الإختلاط بين الريف والمدينة وبين أبناء الطوائف المختلفة. ولا يقل عن ذلك الدور الذي لعبته السينما، مدرستنا الثانية في تلك الأيام. الحق أن السينما كانت هي الأخرى منذ الأربعينات والخمسينات قد افتتحت لها صالات واسعة ذات قدر وأناقة، وخصوصاً تلك التي تقع في وسط المدينة الحديثة. واقع الأمر أنه كان ثمّة نوعان من دور العرض تمثّلان درجتين متعاقبتين: الأولى التي تحمل بغالبيتها أسماء أجنبية وتعرض الأشرطة الأوربية والأميركية، والأخرى التي تحمل الأسماء العربية والتي تعرض الأفلام المصرية، أو تعيد عرض ما عرضته الأولى. وفي تلك تعرفنا على عالم السينما في صالاتها التي تقع على تخوم المدينة القديمة وكان روّادها من الصبية بعد الظهر. كانت السينما بالنسبة لنا في أواخر الخمسينات هي

سينما الإدهاش، سينما خيالية لا تمتّ إلى الواقع بصلة أبطالها طرزان وهرقل وأوليس، تنقلنا إلى عوالم طروادة أو إلى مجاهل أفريقيا، إلى بغداد هوليودية مع السندباد. لكنها في الستينات إندمجت في حياتنا ومشاعرنا وأحلامنا، فأصبحت سينما الحياة اليومية، لا تنقلنا إلى عالم خيالي، بل إلى عالم نحسب أنه نموذج المغامرة كما يعيشها الغرب، في قصص الحب والحياة الرغدة، وتمثّل عالمَ أشخاص يشبهوننا أو نود أن نتشبّه بهم. إذذاك صارت السينما ذات تأثير أعمق في حياتنا وسلوكنا ومشاعرنا، صارت السينما في وسط الستينات طقساً إجتماعياً محليًّا؛ كان الشباب من الجنسين يضربون مواعيد اللقاء داخل صالات السينما في عروض الساعة الثالثة. وفي العروض المسائية بعد الساعة التاسعة مساءً، كان الأزواج يقضون سهرة تمتدّ إلى وقت يقترب من منتصف الليل، فأسهمت في تنظيم توقيت جديد للمدينة وإيقاعها الليلي الذي لا يخلو من الحركة. فكانت محلات السندويش والسجائر وبعض بائعي البقالة يسهرون على إيقاع العروض السينمائية المسائية، وكذلك سيارات الأجرة التي تنتظر آخر الرواد.

كان المقهى يسير على إيقاع العروض السينمائية، بل أوجد إيقاعه الخاص به، مقاهي إفتتحت منذ مدة قصيرة، في السنوات التي أعقبت ١٩٥٨، ثلاثة أو أربعة مقاهي أقيمت بالقرب من دور السينما، وعدد آخر أقيم لاحقاً في المناطق التي امتدّ إليها العمران، تبدّل روادها منذ الصباح وحتى ساعات المساء المتأخّرة. كان المقهى لقاء المدينة بالريف، يكتظ بشاربي القهوة في الصباح قبل توجّههم إلى أعمالهم لكن مقاهي الستينات نشأت على عادات عصرية؛ تقدم المشروبات والمآكل الغربية ظهراً ومساءً، وتستقبل الزبائن من الجنسين، وتقيم سهرات أسبوعية في أمسيات السبت. حياة مختلطة، إذ نزلت المرأة لتوّها لتشارك في هذا التحديث الناشىء، وكان حضورها في المشهد

المديني عنواناً لهذا التحديث في العادات والطقوس من حيث لا تدري.

حدثت تبدّلات ذات مغزى في الإتجاه المفضي إلى تحديث المظاهر. ومحافظ المدينة الذي ترك ذكرى وصيتاً حسناً، كان يتشدّد في قمع المخالفات التي تخرق النظام والقانون. ومنع المحافظ إياه سير عربات النقل التي تجرّها البغال، مفسحاً المجال لازدهار عصر سيارات الأجرة. لكن تحوّلات أكثر عمقاً كانت تشقّ طريقها، فمع مطلع الستينات إنتهى أمر الخبز المنزلي. كانت ربّات البيوت تُعِدّ الخبز في المنازل، ويتكفّل صبيان العائلة بنقل الأرغفة العجين إلى الأفران. وكان أهل المدينة يزدرون الخبز «السوقي» الجاهز. لكن التطوّرات العمرانية وانتقال الأهالي العجول من مدينتهم القديمة إلى الشوارع والأحياء الحديثة ألغى عادة إعداد الخبز داخل المنزل، فحرر المرأة من أعباء، وكانت تتّجه للتخلّي عن عادات أخرى.

في هذا الإنتقال نحو المدينة الحديثة كان الحجاب يتراجع، لم تكن المرأة في حيّها القديم، حيث الأهل والأقارب والجيران، لتجرؤ على كشف وجهها أمام من اعتادوا على حجابها. لكن الإنتقال إلى حي آخر أعاد ترتيب القيم ترتيباً جديداً. وأخذ الجيل الجديد من الفتيات يكشف وجهه وينزع الحجاب نهائياً. لقد حدث تحوّل سريع، وقد تبدّل المشهد الإجتماعي تبدّلاً مذهلاً.

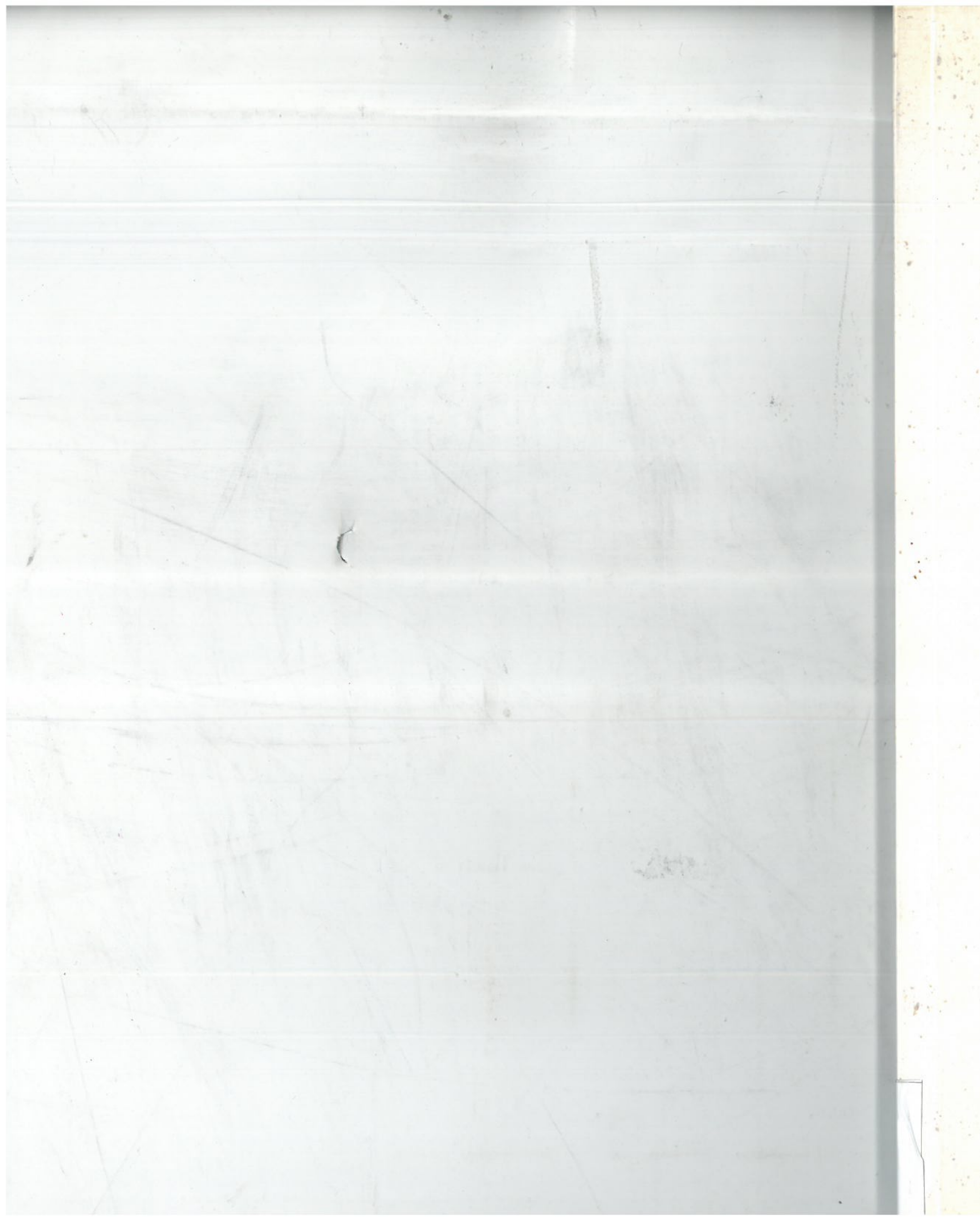
نظام قيمي جديد يشمل أنماط العيش. لكن في قلب هذه التحوّلات كانت المؤسّسات الأهلية تحافظ على ثباتها. وليس بدون مغزى. إن دوائر النفوس لا تزال تربط إبن المدينة بمكان ولادة أهله، وتربط الأجيال الجديدة بأحياء وحارات لا يعرفونها. وليس بدون مغزى أن العائلة حافظت على تماسكها كمؤسسة إجتماعية وأخلاقية. فقد كان انتقالاً هادئاً إلى الحداثة، وأمكن لأهل المدينة أن يتمثّلوا

المظاهر بعد تكييفها واستيعابها دون أن يطرأ خلل يذكر على تماسكهم.

كانت الستّينات فترة تذليل العقبات بين التقاليد والحداثة، لا يُفهم ذلك إلّا على ضوء ما سبق وما لحق، في زمن الإنتداب كانت الحداثة والعصرنة تقحم إقحاماً قسرياً في مجتمع يبدي مقاومة للمظاهر التي تسلبه شخصيته. أما في الستينات فقد تمّ التوافق والتهادن بين النماذج والقيم المتضاربة. إنها فترة سعيدة بمنظار أولئك الذين اعتبروا كل ما حدث مرادفاً للتقدّم، للتفاؤل والأمل، لكن الستّينات ليست سوى سنوات سريعة جاءت مبكرة وربما إنقضت قبل أوانها.

المحتويات

طبع في بيروت، لبنان، نيسان ١٩٩٤



«في روايته لتعرّض طرابلس (لبنان) لرياح «الحداثة»، لا يحلّ خالد زيادة مدينته في مرتبة ثانية مقابل بيروت. أو انه لا يراها منعكسة في مرآة المدينة الأولى على نحو ما يرى المقيمون في المدن الثانية. ليست طرابلس ريفاً مدينياً يحتاج المفتون بالمدن الى مدينة أخرى سواها ليوكل إليها أمر فتنته. ثم ان التغيّر لا يأتي إليها منقولاً من بيروت مستعملاً سبق حصوله. إنها تتغيّر مستقلّة عمّا يفترض أن يكون نموذجها الرائد. أما التغيّر هذا، فيأتيها من شاطئها المتوسّطي، من حيث يأتيها الفرنسيون والطليان واليونان غير العابرين أولاً بالعاصمة. ثمّ ان تاريخها السابق على التحوّل لا يصلها إلا بزمنها هي. هكذا كأنها مدينة منفردة، تبدأ من نفسها وتنتهي الى نفسها. أو كأنها لم تذعن للدولة التي أصبحت منها فتقبل، مثلاً، ان تدير وجهها جنوباً، الى حيث العاصمة...

في كتابه يقتفي خالد زيادة أثر مدينة لا أثر جيل واحد من أجيالها. فعلى رغم ما توالى عليها من تغيّر، ما زال ممكناً النظر اليها كمكان ذي سمات تختصّ به. ليست مدينة تضمّ غرباء، بل مدينة تضمّ أقربين فرّقت بينهم الصور النازلة بينهم، وإلا لكان من الصعب التأريخ لمدينة في سياق زمني واحد في تتابُعه».

حسن داوود، «الحياة»

لوحة الغلاف: مائية لأمين الباشا

(مجموعة خاصة)